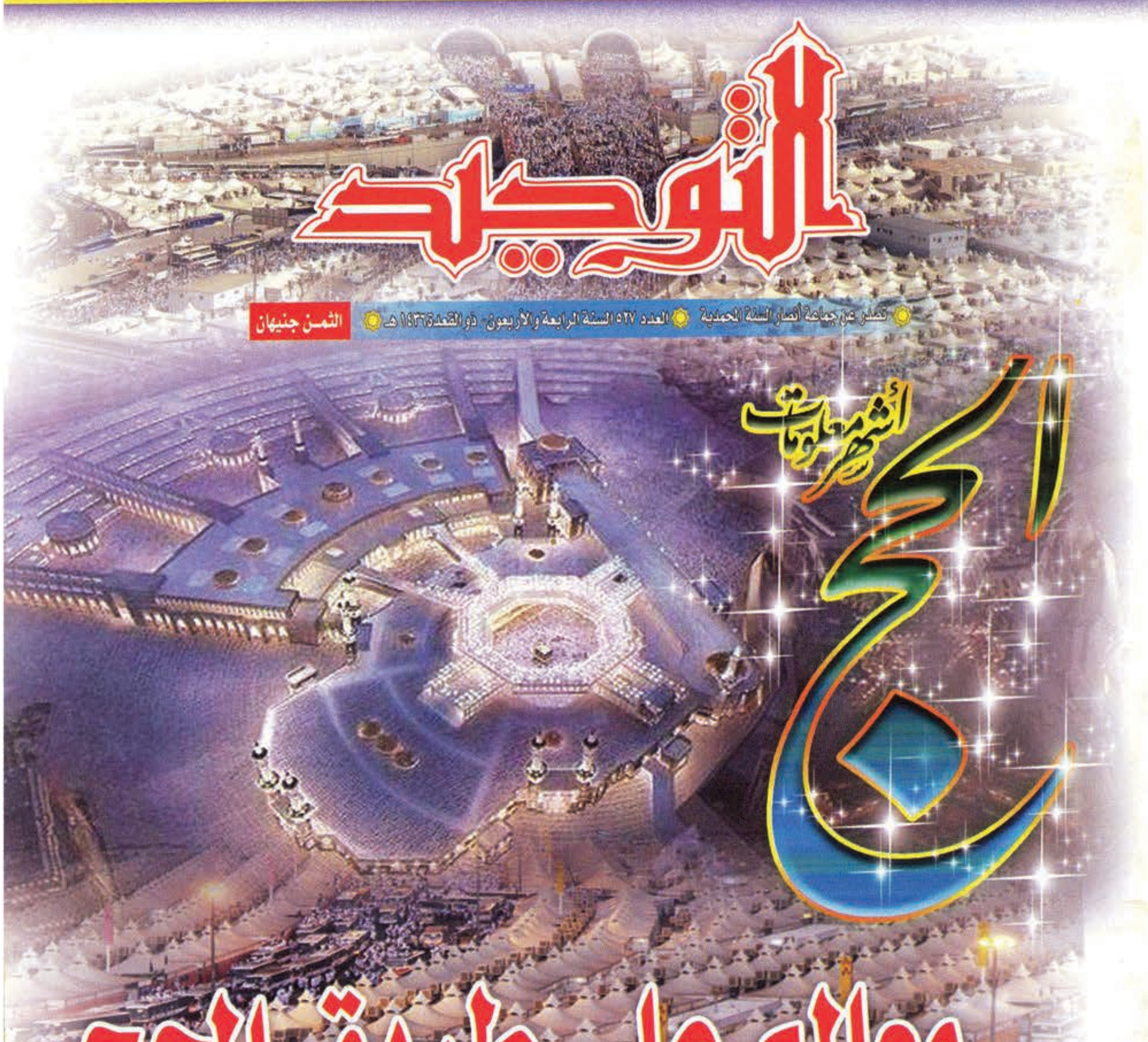
صون اللسان عن الكلام في العلماء والأعيان

التوحيد

تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية · العدد ٥٢٧ السنة الرابعة والأربعون - ذو القعدة ١٤٣٦ هـ · الثمن جنيهان



الحج أشهر معلومات

معالم على طريق الحج

- التوحيد: وصايا للحجيج
- التوحيد: حجرات نساء النبي صلى الله عليه وسلم
- التوحيد: الرد على شبهة عدم حاجة الناس لأهل الذكر



بسم الله الرحمن الرحيم

فاعلم أنه لا إله إلا الله

صاحبة الامتياز
جماعة أنصار السنة المحمدية

المشرف العام
د. عبد العظيم بدوي

اللجنة العلمية
جمال عبد الرحمن
معاوية محمد هيكل
د. مرزوق محمد مرزوق

التحرير
٨ شارع قولة عابدين. القاهرة
ت: ٢٣٩٣٦٥١٧ . فاكس: ٢٣٩٣٠٦٦٢
البريد الإلكتروني
MGTAWHEED@HOTMAIL.COM
رئيس التحرير:
GSHATEM@HOTMAIL.COM
قسم التوزيع والاشتراكات
ت: ٢٣٩٣٦٥١٧
ISHTRAK.TAWHEED@YAHOO.COM
المركز العام:
هاتف: ٢٣٩١٥٥٧٦-٢٣٩١٥٤٥٦
WWW.ANSARALSONNA.COM

تنويه

إلى الإخوة مشتركي مجلة التوحيد بمصر: برجاء مراجعة مكتب البريد التابع لكم، والاتصال بقسم الاشتراكات في حالة عدم وصول المجلة، والإبلاغ عن اسم مكتب البريد التابع له المشترك؛ للتواصل مع المسئولين في هيئة البريد، وبحث الشكوى؛ لضمان وصول المجلة للمشترك في موعدها

والله الموفق

رئيس مجلس الإدارة
د. عبد الله شاكر الجنيدي

السلام عليكم

شدة الحر من فيح جهنم

الناس يشتكون شدة الحر- ولهم العذر-، فالحرارة إذا ارتفعت أضرت كل شيء حتى الجمادات والسيارات، فكيف بالإنسان؟!

وشدة الحر من فَيْح جهنم، أي: من شدتها وهيجانها. وجهنم نفسها تشتكي إلى الله- عز وجل- شدة حرارتها وهيجانها وانحباسها، كما في الحديث: «اشتكت النار إلى ربها، فقالت: رب! أكل بعضي بعضًا، فأَذِنَ لها بِنَفَسَيْنِ، نَفَسٍ في الشتاء، ونَفَسٍ في الصيف، فأشد ما تجدون من الحرّ فمن حرّها، وأشد ما تجدون من البرد فمن زمهريرها.

فأنفاس الحر الشديد أو البرد الشديد أنفاس جهنمية، ورسالة إلى البشرية، من خالق البرية، تقول: «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ» (التوبة: ١٨).

فاللهم قِنَا عذابك يوم تبعث عبادك.

التحرير

رئيس التحرير

جمـال سـعـد حـاتـم

مدير التحرير الفني

حسين عطا القراط

سكرتير التحرير

مصطفى خليل أبو المعاطي

الإخراج الصحفي

أحمد رجب محمد

محمد محمود فتحي



ثمن النسخة

مصر ٢٠٠ قرش ، السعودية ٦ ريالات ، الإمارات ٦ دراهم ، الكويت ٥٠٠ فلس، المغرب دولار أمريكي ، الأردن ٥٠٠ فلس، قطر٦ ريالات ، عمان نصف ريال عماني ، أمريكا دولاران ، أوروبا ٢ يورو

الاشتراك السنوي

١- في الداخل ٤٠ جنيهاً بحوالة فورية باسم مجلة التوحيد . على مكتب بريد عابدين ، مع إرسال صورة الحوالة الفورية على فاكس مجلة التوحيد ومرفق بها الاسم والعنوان ورقم التليفون.

٢- في الخارج ٢٥ دولارا أو ١٠٠ ريال سعودى أو مايعادلهما.

ترسل القيمة بسويفت أو بحوالة بنكية أو شيك على بنك فيصل الإسلامي فرع القاهرة . باسم مجلة التوحيد . أنصار السنة حساب رقم / ١٩١٥٩٠

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

في هذا العدد

افتتاحية العدد

منهج المخالفين لأهل السنة في التعامل مع النصوص الشرعية

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين، وبعد:

فأواصل في هذا اللقاء بيان مسلك المبتدعة في التعامل مع النصوص الشرعية، وقد ذكرت سابقًا أربعة أمور حادوا فيها عن الطريق القويم، وأشرع الآن- بحول الكريم الرحمن- في ذكر ما وقفت عليه من مسالكهم الباطلة، فأقول وبالله التوفيق:

خامسًا: كتمان النصوص وتحريفها:

وهذا المسلك من سمات الأمم السابقة على أمة الإسلام. قال الله تعالى عن أهل الكتاب: « يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ » (آل عمران:٧١)، وهذه حقيقة يذكرها القرآن الكريم عنهم، فقد كتموا ما في التوراة والإنجيل من البشارة بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر ابن جرير عن الربيع أنه قال: « يكتمون شأن محمد صلى الله عليه وسلم وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر». (تفسير الطبري ٣/ ٢٢٠).

وقد حذا المبتدعة حذو أهل الكتاب في ذلك، فحاولوا كتمان النصوص الصريحة التي تخالف معتقداتهم الباطلة، وهذا دليل على ضعف الدين وتمكن الهوى من النفس. يقول ابن حزم رحمه الله: «ولا أرق دينًا ممن يوثق رواية إذا وافقت هواه، ويوهنها إذا خالفت هواه». (المحلى: ٤/ ١٨٠).

ويقول ابن تيمية رحمه الله: «ومن المعلوم أنك لا تجد أحدًا ممن يرد نصوص الكتاب والسنة بقوله إلا وهو يبغض ما خالف قوله، ويود أن تلك الآية لم تكن نزلت، وأن ذلك الحديث لم يرد، ولو أمكنه كشط ذلك من المصحف لفعله.. ولهذا تجد الواحد من هؤلاء لا يحب تبليغ النصوص النبوية، بل قد يختار كتمان ذلك والنهي عن إشاعته وتبليغه خلافًا لما أمر الله به ورسوله من التبليغ عنه، كما قال: "ليبلغ الشاهد الغائب"، وقد ذمَّ الله في كتابه الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى، وهؤلاء يختارون كتمان ما أنزله الله؛ لأنه معارض لما يقولونه». (درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٢١٧-٢١٩).

وقد ارتكب هؤلاء تجاه النصوص أمرًا آخر لا يقل في الضلال عن الكتمان بل هو أشد، ألا وهو تحريف النصوص ومحاولة العبث بها، وتحريف النصوص من ديدن اليهود أيضًا. قال الله فيهم: « أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ » (البقرة:٧٥). وقد وقع اليهود في ذلك، ونالوا منه حظًا وافرًا، وقد عقد البخاري في صحيحه بابًا قال فيه: «باب وقولوا حطة»، ثم ساق تحته حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قيل لبني إسرائيل: «ادْخُلوا الْبابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ»، فبدلوا، فدخلوا يَزْحَفُونَ عَلَى

أَسْتَاهِهِمْ وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعَرَةٍ». (البخاري: ٤٦٤١).

قال ابن حجر في شرحه: «والحاصل أنهم خالفوا ما أمروا به من الفعل والقول فإنهم أمروا بالسجود عند انتهائهم شكرًا لله تعالى وبقولهم حطة، فبدلوا السجود بالزحف وقالوا حنطة بدل حطة، أو قالوا حطة وزادوا فيها حبة في شعيرة. وروى الحاكم من طريق السدي عن مرة عن ابن مسعود قال " قالوا هطى سمقا " وهي بالعربية حنطة حمراء قوية فيها شعيرة سوداء، ويستنبط منه أن الأقوال المنصوصة إذا تعبد بلفظها لا يجوز تغييرها ولو وافق المعنى» (فتح الباري ٣٠٤/٨).

وعلى مدار التاريخ حاول فريق من الناس تحريف ألفاظ القرآن الكريم فلم يتمكنوا؛ لحفظ الله له، ومن طريف ما يذكر في ذلك: أن بعض هؤلاء قال لأبي عمرو بن العلاء أحد أئمة القراء السبعة: أريد أن تقرأ: «وكلم اللهَ موسى» بنصب الله، ليكون موسى هو المتكلم لا الله، فقال له أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية هكذا، فكيف بقوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ» (الأعراف:١٤٣). فبهت المعتزلي. (شرح الطحاوية ١٧٧/١).

وهؤلاء إن لم يتمكنوا مع تحريف لفظ القرآن، فقد استطاعوا تحريف المعنى مع بقاء اللفظ على ما هو عليه، وقد استطاعوا بذلك تحريف النصوص عن معانيها الحقيقية وما تدل عليه وفق ما تفهمه العرب من لغتها فضلوا وأضلوا، وحرفوا الناس عن الحق الذي أنزل الله تبارك وتعالى، وللإمام ابن القيم كلمات دقيقة في ذلك يقول فيها: «إذا تأمل المتأمل فساد العالم وما وقع فيه من التفرق والاختلاف وما دفع إليه أهل الإسلام وجده ناشئًا من جهة التأويلات المختلفة المستعملة في آيات القرآن وأخبار الرسول التي تعلق بها المختلفون على اختلاف أصنافهم في أصول الدين وفروعه؛ فإنها أوجبت ما أوجبت من التباين والتحارب وتفرق الكلمة وتشتت الأهواء، وتصدع الشمل وانقطاع الحبل، وفساد ذات البين حتى صار يكفر ويلعن بعضهم بعضا، وترى طوائف منهم تسفك دماء الآخرين وتستحل منهم أنفسهم وحرمهم وأموالهم ما هو أعظم مما يرصدهم به أهل دار الحرب من المنابذين لهم، فالآفات التي جنتها ويجنيها كل وقت أصحابها على الملة والأمة من التأويلات الفاسدة أكثر من أن تحصى أو يبلغها وصف واصف، أو يحيط بها ذكر ذاكر، ولكنها في جملة القول أصل كل فساد وفتنة وأساس كل ضلال وبدعة». (الصواعق المرسلة ٣٤٨/١).

وأقول: صدق هذا الإمام في قوله، فما فسدت الدنيا والدين إلا بتحريف النصوص عن ظاهرها، وما قتل عثمان وعلي رضي الله عنهما إلا بالتأويل، وما ضلت الباطنية وأنكروا نصوص المعاد والجنة والنار، والصراط والميزان إلا بالتأويل، ومن ألوان التحريف الاستدلال بالنصوص في غير مواضعها تلبيسًا للعامة وصرفا لهم عن معرفة الحق بالأدلة، وفي ذلك يقول الشاطبي رحمه الله: «يرد الدليل على مناط فيصرف عن ذلك المناط إلى أمر آخر موهما أن المناطين واحد وهو من خفيات تحريف الكلم عن مواضعه والعياذ بالله، ويغلب على الظن أن من أقر بالإسلام ويذم تحريف الكلم عن مواضعه لا يلجأ إليه صراحا إلا مع اشتباه يعرض له أو جهل يصده عن الحق» (الاعتصام ٢٤٩/١).

سادسا: إهمال الأحاديث الصحيحة والاعتماد على الضعيف والموضوع:

من المقرر شرعًا أن السنة النبوية كالقرآن في وجوب العمل بها متى كان الحديث مقبولا، ومن هنا اهتم أهل السنة وعلماء الحديث بالسنة النبوية واحتاطوا غاية الاحتياط في تمييز صحيحها من سقيمها، وكانوا يرون حرمة رواية الحديث الموضوع إلا للتحذير منه، ولم يستدلوا بالضعيف في مسائل الاعتقاد وأصول الشريعة، وذهب البعض إلى العمل به في فضائل الأعمال بشروط معلومة، أما أهل الأهواء والبدع فخالفوا هذا المنهج واعتمدوا في استدلالهم بالموضوع والضعيف، وقد ذكر الشاطبي رحمه الله أن هذا من مسالك الزائغين عن طريق الحق، وفي ذلك يقول عنهم: «اعتمادهم على الأحاديث الواهية الضعيفة والمكذوب فيها على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والتي لا يقبلها أهل صناعة الحديث في البناء عليها كحديث الاكتحال يوم عاشوراء، وإكرام الديك الأبيض، وأكل الباذنجان، وأن النبي (صلى الله عليه وسلم)

تواجد واهتز عند السماع حتى سقط الرداء عن منكبيه وما أشبه ذلك؛ فإن أمثال هذه الأحاديث - على ما هو معلوم - لا يبنى عليها حكم، ولا تجعل أصلاً في التشريع أبدًا، ومن جعلها كذلك فهو جاهل ومخطئ في نقل العلم... والأحاديث الضعيفة الإسناد لا يغلب على الظن أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قالها فلا يمكن أن يسند إليها حكم، فما ظنك بالأحاديث المعروفة الكذب؟ نعم الحامل على اعتمادها في الغالب إنما هو ما تقدم من الهوى المتبع» (الاعتصام ١/٢٢٤).

ويقول ابن قدامة رحمه الله: «أما الأحاديث الموضوعة التي وضعها الزنادقة ليلبسوا بها على أهل الإسلام، أو الأحاديث الضعيفة، إما لضعف رواتها، أو جهالتهم، أو لعلة فيها، فلا يجوز أن يُقال بها، ولا اعتقاد ما فيها، بل وجودها كعدمها». (ذم التأويل: ص٤٧).

وفريق من هؤلاء يأخذون من السنة ما يوافق قوله فقط، أما ما خالف هواه ومعتقده فلا يقبل منه شيئًا مع صحته وظهوره، ويتجاهل في رده ودفعه أو تأويله بتأويلات باطلة، وقد أشار إلى هؤلاء ابن القيم في قوله: «نظروا في السنة فما وافق أقوالهم منها قبلوه وما خالفها تحيلوا في رده أو رد دلالته وإذا جاء نظير ذلك أو أضعف منه سندا ودلالة وكان يوافق قولهم قبلوه ولم يستجيزوا رده، واعترضوا به على منازعيهم وأشاحوا وقرروا الاحتجاج بذلك السند ودلالته، فإذا جاء ذلك السند بعينه أو أقوى منه ودلالته كدلالة ذلك أو أقوى منه في خلاف قولهم دفعوه ولم يقبلوه» (إعلام الموقعين ١/٧٦).

ويقول ابن أبي العز: «كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته، وما ظنه معقولاً: فما وافقه قال: إنه محكم، وقبله واحتج به!! وما خالفه قال: إنه متشابه، ثم رده، وسمى رده تفويضا! أو حرفه، وسمى تحريفه تأويلا!!» (شرح الطحاوية ٢/٥٠٠).

سابعا: عدم الأخذ بأحاديث الآحاد:

إن الناظر في تعامل المبتدعة مع النصوص يعجب من مسلكهم، فهم كما ذكرت قبل هذا يعتمدون على الضعيف والموضوع من الحديث، ثم هم في نفس الوقت لا يقبلون أحاديث الآحاد، وخاصة في مسائل الاعتقاد، حتى ولو كانت صحيحة وفي كتب السنة المعتبرة.

وحديث الآحاد: هو الخبر الذي لم ينته إلى حد التواتر، ولم يقصر عن درجة الاحتجاج به، وعرفه ابن حجر بقوله: «وخبر الآحاد بنقل عدل تام الضبط متصل مسند غير معلل ولا شاذ وهو الصحيح لذاته». (شرح نخبة الفكر ص٨).

وقد ذهب الجمهور إلى وجوب العمل به، واستدلوا على ذلك بأدلة، منها قول الله تعالى في كتابه: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» (المائدة:٦٧). ففي هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبلغ جميع ما أرسل به، وهو شخص واحد، ولو كان خبر الواحد غير مقبول لتعذر إبلاغ الشريعة، فدل ذلك على قبول خبر الواحد، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث أمراءه إلى البلاد المفتوحة ليعلموا الناس القرآن والسنة ومسائل العقيدة والأحكام وأمور الدين فيهما، ولو كانت الحجة لا تقوم بخبر الواحد لما فعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أرسل معاذًا إلى اليمن وأمره أن يعلمهم العقيدة والشريعة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذا إلى أهل اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموالهم». (البخاري: ٧٣٧٢).

وفي حديث وفد عبد القيس أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإيمان بالله وحده، ثم قال لهم: «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ» (البخاري: ٥٣).

فهذان حديثان دالان على وجوب قبول خبر الواحد والعمل به، وأنه تقوم به الحجة، وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم دحية الكلبي رضي الله عنه إلى هرقل عظيم الروم، وبعث معه رسالة جاء

فيها: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ». والمراد بقوله: «أدعوك بدعاية الإسلام» يعني إلى كلمة التوحيد، وهي الكلمة الداعية إلى الإسلام. (انظر: شرح النووي على مسلم ١٢/١١٠).

وقد ذكر النووي رحمه الله أن في هذا الكتاب المرسل إلى هرقل جملاً من القواعد وأنواعاً من الفوائد، منها: وجوب العمل بخبر الواحد، وإلا فلم يكن في بعثه مع دحية فائدة، وهذا إجماع من يعتد به. (المرجع السابق ١٢/١٠٧).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «فإن قال قائل: اذكر الحجة في تثبيت خبر الواحد بنص خبر أو دلالة فيه أو إجماع.

فقلت له: أخبرنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن النبي قال: " نَضَّرَ اللهُ عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يُغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط مِنْ ورائهم ".

فلما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها امرأ يؤديها والامرؤ واحد- دل على أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه لأنه إنما يؤدى عنه حلال يؤتى وحرام يجتنب، وحد يقام، ومال يؤخذ ويعطى، ونصيحة في دين ودنيا...» (الرسالة: ٤٠١-٤٠٣).

كما استدل أيضًا بهذا الحديث على قبول خبر الواحد شيخي العلامة عبد المحسن العباد فقال: «أخبار الآحاد حجة يجب العمل بها، والأدلة على إثبات هذه الحقيقة في الكتاب والسنة لا تحصى، وقد كان صلى الله عليه وسلم يبعث رسله إلى الآفاق لتعليم الدين وتقوم الحجة على الذين أرسلوا إليهم بذلك، ومن الأدلة على ذلك حديث: نضَّر الله امرأ سمع مقالتي» (كتب ورسائل عبد المحسن العباد ٣/٤٨٢).

وقد كان التابعون ومن بعدهم من الفقهاء يقبلون خبر الواحد ويعملون به، وكفى بهذا دلالة على قبوله. قال الخطيب البغدادي رحمه الله: «وعلى العمل بخبر الواحد كان كافة التابعين ومن بعدهم من الفقهاء الخالفين في سائر أمصار المسلمين وقتنا هذا، ولم يبلغنا عن أحد منهم إنكار ذلك، ولا اعتراض عليه، فثبت أن من دين جميعهم وجوبه، إذ لو كان فيهم من كان لا يرى العمل به لنقل إلينا الخبر عنه بمذهبه فيه». (الكفاية في علم الرواية ص٧٢).

كما قد الإمام البخاري رحمه الله في جامعه الصحيح كتابًا قال فيه: «كتاب أخبار الآحاد»، ثم قال: باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الآذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام، وقول الله تعالى: «فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (التوبة:١٢٢)، ويسمى الرجل طائفة لقوله تعالى: «وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟» (الحجرات:٩). (فتح الباري ١٣/٢١٣).

ثم ذكر البخاري عدة أحاديث تؤيد العمل بخبر الواحد، وقد فهم ابن حجر رحمه الله أن هذه الأحاديث تشمل العقائد والأحكام، ومن ذلك قوله: «وَاعْتَرَضَ بَعْضُ الْمُخَالِفِينَ بِأَنَّ إِرْسَالَهُمْ إِنَّمَا كَانَ لِقَبْضِ الزَّكَاةِ وَالْفُتْيَا وَنَحْوِ ذَلِكَ وَهِيَ مُكَابَرَةٌ، فَإِنَّ الْعِلْمَ حَاصِلٌ بِإِرْسَالِ الْأُمَرَاءِ لِأَعَمَّ مِنْ قَبْضِ الزَّكَاةِ وَإِبْلَاغِ الْأَحْكَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَوْ لَمْ يَشْتَهِرْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا تَأْمِيرُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَأَمْرُهُ لَهُ وَقَوْلُهُ لَهُ " إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ " إِلَخْ، وَالْأَخْبَارُ طَافِحَةٌ بِأَنَّ أَهْلَ كُلِّ بَلَدٍ مِنْهُمْ كَانُوا يَتَحَاكَمُونَ إِلَى الَّذِي أُمِّرَ عَلَيْهِمْ وَيَقْبَلُونَ خَبَرَهُ وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ الْتِفَاتٍ إِلَى قَرِينَةٍ» (فتح الباري ١٣/٢٣٥).

والمقصود أن معاذًا رضي الله عنه أُمِرَ أن يبلغ العقيدة مع الأحكام، وقامت الحجة بخبره وهو واحد، فدل ذلك على قبول خبر الواحد في العقائد والأحكام معًا.

والله ولي التوفيق والسداد.

منبر الحرمين

الإسلام دين الأخلاق

إعداد/ الشيخ د. صالح بن حميد
إمام المسجد الحرام

الحمد لله، الحمد لله مُنشئ الأمم ومُبيدها، وباعث الرِّمم ومُعيدها، أحمده سبحانه شاكرًا طائعًا، وأستعينه وأستغفره عابدًا خاضعًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مُوحِّدًا مخلصًا، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبدُ الله ورسوله، بعثه ربُّه بدين الحقِّ داعيًا وهاديًا، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً وسلامًا كثيرًا دائمًا مُتواليًا.

أما بعد: فأُوصيكم -أيها الناس- ونفسي بتقوى الله -عز وجل-، فاتقوا الله -رحمكم الله-: (وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ) (البقرة: ٢٨٢)، بالعلم يصحُّ العمل، وبالعمل تُنال الحكمة، وبالحكمة يقومُ الزُّهد، وبالزُّهد تُعرف الدنيا، ومن عرفَ الدنيا رغِبَ في الآخرة، ومن رغِبَ في الآخرة نال المنزلة، والتوفيقُ خيرُ قائدٍ، ومن رضِيَ بقضاء الله لم يُسخطه أحد، ومن قنِع بعطاء مولاه لم يدخله حسَد، ومن فُتِح له بابُ خيرٍ فليُسرِع إليه؛ فإنه لا يدري متى يُغلَقُ دونه.

واعلموا أن الموتَ يعمُّنا، والقبورَ تضمُّنا، والقيامةُ تجمَعُنا، والله يحكمُ بيننا وهو خيرُ الحاكمين: (فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (المائدة:٤٨).

أيها المسلمون!! قواعدُ السلوك ومعايير الأخلاق وآداب التعامُل مقياسُ جليٌّ من مقاييس الالتزام بدين الإسلام، وعنوانٌ من عناوين الرُّقيِّ الحضاريِّ، ومَعلَمٌ من معالم السموِّ الإنساني، إنها القواعد والآداب التي تحكُم العلاقَات بين الناس من كل فئاتهم وطبقاتهم، قواعدُ وآدابُ تبعَثُ على الشعور بالأمان والمحبَّة وحُسن المعاشَرة وسعادة المُجتمع.

والمسلمون في تجمُّعاتهم تتجلَّى فيهم هذه المظاهر السلوكية، والتخلُّق بأخلاق دينهم، والالتزام بتعاليم شرعهم، ومن تحبَّبَ إلى الناس أحَبُّوه، ومن أحسنَ مُعاملتَهم قبِلُوه.

الدمَاثَةُ وحُسن الخُلُق هي اللغةُ الإنسانيةُ المُشتركة التي يفهَمُها كلُّ أحد، وينجذِبُ إليها الكريم، ويُحسِنُ الإنصاتَ إليها الحكيم.

الوجهُ الصبوح خيرُ وسيلة لكَسب الناس، وحُسن البِشر يُذهِبُ السَّخيمة، وذو المُروءة الحكيم من يُخاطِبُ الناسَ بأفعاله قبل أن يُخاطِبَهم بأقواله.

أيها المسلمون!! وفي ديننا من التوجيهات والتعليمات ما يبني شبكةً واسعةً من العلاقات المَتينة مع الدائرة الأُسريَّة والمُجتمعية، والدائرة الإسلامية الأوسع، ثم الدائرة الإنسانية الأشمَل.

وفي ديننا كذلك: "أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا". أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

وفي الحديث: "إنكم لن تسَعُوا الناسَ بأموالكم، وليسَعْهُم منكم بسطُ الوجه وحُسنُ الخُلُق". رواه الترمذي، والحاكم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- بإسناد صحيح.

وفي الحديث عند مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "من أحبَّ أن يُزحزَح عن النار ويدخُل الجنة فلتأته منيَّتُه وهو يُؤمنُ بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يُحبُّ أن يُؤتَى إليه".

والناسُ معادن وطبقات ومنازل، ومُعاملتُهم معاملةَ

واحدة أمرٌ في الحياة لا يستقيم؛ فما يُلائمُ هذا لا يُلائمُ ذاك، وما يُناسبُ هذه الفئة لا يُناسبُ تلك، ويحسُن مع هذا ما لا يجمُل مع الآخر.

والناس يُخاطَبون بما يعرفون؛ فالعقول مُتفاوتة، والفهومُ مُتباينة، والطباعُ مُتغايرة، ولله في خلقه شؤون؛ من والد وولد، وزوج وأخ، ورئيس ومرؤوس، وسريع الفهم وبطيئه، وحادّ الطبع وبارده، وقريب الصلة وغريبها، في أشخاص وصفات وأحوال؛ من شدّة ورخاء، وحُزن وسُرور، والأرواحُ جنودٌ مُجنّدة.

وقد قالت الحكماء: "إذا أردتَ اصطيادَ السمك فضع في سنّارتك ما يُلائمُ من طعام، وقد تُلائمُ الديدان لا فاخرُ اللحوم".

أيها المسلمون!! وهذا عرضٌ لبعض ما حفلت به السيرة المصطفوية والهدي المحمّدي والسنّة النبوية من أنواع المعاملات والتوجيهات لمختلف الطبقات والشخصيات؛ كيف وهو المصطفى الهادي البشير، واصطفاه ربُّه بقوله -عزّ شأنه-: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) (التوبة:١٢٨)، وقال -جل وعلا-: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران:١٥٩).

وأول ما يُواجِه المُتأمِّل في هذه السيرة النبوية الكريمة والهدي المحمّدي: مُعاملته مع أهله، وسلوكه في بيته -عليه الصلاة والسلام-.

لقد كان حبيبُنا ونبيُّنا محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- بشرًا من البشر؛ يفلي ثوبه، ويحلبُ شاته، ويخدمُ نفسَه، وكان في مهنة أهله، فإذا حضرَت الصلاةُ خرجَ إلى الصلاة. أخرجه البخاري، والترمذي.

وكان يقول -عليه الصلاة والسلام-: "خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي". أخرجه الترمذي، وابن ماجه.

ويظنّ بعض الناس أن الرجولة والشخصية في عُبوس الوجه، وتقطيب الجبين، وإصدار الأوامر والنواهي، وتجنّب المُباسَطة في الحديث مع الأهل، ومُبادلة المسرّات وحُسن الإصغاء.

وحديثُ أم زرع الطويل كان مُسامرة بين عائشة -رضي الله عنها- وزوجها محمد رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلّم- مُؤانسةً ومُباسطة.

ومن حُسن المعاملة: المُشاورة في الشؤون الأُسريَّة وغيرها: (فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا) (البقرة: ٢٣٣)، وشاورَ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- زوجَه أمَّ سلمَة في شأنٍ كبير، وهو: شأنُ صُلح الحديبية، وأخذ بمشورتها.

وشاوَر بريرَة في قصة الإفك -وهو حدثٌ عظيمٌ مُزلزل-.

بل تأمّلوا وتفقّهوا كيف كان تعامُله -عليه الصلاة والسلام- مع أخطاء الناس وغيرة النساء؛ فحين كسرَت إحدى زوجاته صحفة صاحبتها المملوءة طعامًا، ما كان من النبي الكريم ذي الخُلق العظيم -عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم- إلا أن تعامل برفق، مُقدّرًا طبائع النساء قائلًا: "غارَت أمُّكم"، فجمعَ الطعامَ المُتناثر، وقال: "طعامٌ بطعام، وإناءٌ بإناء". أخرجه البخاري، والترمذي.

يقول الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: "وفيه: عدمُ مُؤاخذة الغيراء بما يصدُرُ منها؛ لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوبًا لشدّة الغضب بسبب الغيرة".

يا هذا!! القوةُ والعنفُ والضربُ والشدّة يقدرُ عليها كلُّ أحد، أما الحلمُ والرِّفقُ والصفحُ والعفوُ والتسامُح فليس إلا لذوي الإرادات القوية والمروءات العالية والأخلاق الرفيعة، "وما ضربَ نبيُّكم محمد -صلى الله عليه وسلم- امرأةً ولا خادمًا إلا أن يُجاهدَ في سبيل الله". أخرجه أحمد، وأبو داود.

أما الأطفال والصِّبيان؛ فحدِّث عن هدي نبيِّنا محمد -صلى الله عليه وسلم- في ذلك ولا حرَج:

ومن دقيق المُلاحَظة في التعامُل مع الصغار: أنهم لا يُفرِّقون بين أوقات الجدّ وأوقات اللعب؛ فالطفل يظنّ أن الوقت كلَّه له، وقد قدَّر الإسلامُ هذه المشاعر؛ فها هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحمل بنتَ بنته في الصلاة، فإذا ركعَ وضعَها، وإذا قام رفعَها. متفق عليه.





والحسنُ أو الحُسين -رضي الله عنهما- يرتحل النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- ويركبُ على ظهره وهو في الصلاة، فيُطيل السجود حتى يقضيَ الطفلُ نهمَتَه. أخرجه أحمد، والنسائي.

بل وهو يخطبُ على المنبر جاء الحسنُ -رضي الله عنه-، فصعد المنبَر، فضمَّه النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- ومسحَ رأسَه وقال: "ابني هذا سيدٌ، ولعلَّ الله أن يُصلحَ على يديه بين فئتين عظيمتين من المسلمين". أخرجه أبو داود.

أيها المسلمون!! والطريقُ الأيسر والأقصرُ والأمتعُ إذا قُوبلَ الأطفال والصغار هو مُلاطفتهم ومُمازحتُهم وحُسن رعايتهم ومنحُهم الحنان والاهتمام، وما كان أحدٌ أرحمَ بالعيال من محمد -صلى الله عليه وسلم-.

وزحمةُ الواجبات وكثرةُ المسؤوليات لا يجوزُ أن تشغَلَ عن مثل هذا، فهذا من جُملة المسؤوليات والواجبات.

يقول أنسٌ -رضي الله عنه-: "كان إبراهيمُ ابن الرسول -صلى الله عليه وسلم- مُسترضَعًا في عوالي المدينة، فكان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ينطلقُ ونحن معه، فيدخلُ البيت ويأخذه ويُقبِّلُه ثم يرجع". رواه مسلم.

مُفرداتُ التعامُل مع الصغار: قبلةٌ حانيةٌ، وحضنٌ دافئٌ، ولعبٌ بريءٌ، وهي لغةٌ سهلةٌ يسيرةٌ في تكاليفها، عظيمةٌ في تأثيرها.

مسكينٌ هذا الغليظ القاسي حين يُصوِّره ذلك الرجل الذي رأى رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- يُقبِّل سبطه الحسن -رضي الله عنه-، فقال: أوتُقبِّلون أطفالكم؟! إن لي عشرةً من الولد ما قبَّلتُ أحدًا منهم، فكان الجوابُ النبوي: "من لا يرحمُ لا يُرحَم"، وفي الصورة الأخرى: "أوَأملك أن نزعَ الله الرحمةَ من قلوبكم".

بل إنه -عليه الصلاة والسلام- إذا سمعَ بكاءَ الصبيِّ وهو في الصلاة خفَّفَ مُراعاةً لأمِّه أن تفتتن.

معاشر الأحبة!! أما التعامُل مع الخَدَم والأُجَراء والعُمَّال فيُجسِّدُه تمام التجسيد مقولةُ أنس -رضي الله عنه- مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "خدمتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- عشرَ سنين، فما قال لي لشيءٍ فعلتُه لم فعلتَه، ولا لشيءٍ لم أفعله لم لم تفعله".

وتأمَّلوا هذه الحادثة مع أنس نفسه -رضي الله عنه-: خرج أنسٌ في حاجة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فرأى الصبيانَ يلعبون في السوق فانشغل معهم؛ لأنه كان صغيرًا في سنِّهم، فاستبطأَهُ النبيّ -صلى الله عليه وسلم-، فخرج يبحثُ عنه فوجدَهُ يلعبُ مع الصبيان.

يقول أنس: فإذا رسولُ الله -صلى الله عليه وآله وسلَّم- قد قبضَ بقفايَ من ورائي، فنظرتُ إليه وهو يضحك، فقال: "يا أُنيس: أذهبتَ حيثُ أمرتك؟!". فقلتُ: نعم، أذهبُ يا رسول الله!

هذا هو الدرس: إنسانيةٌ، وتلطُّف، ورقَّةٌ في النداء: "يا أُنيس"، من غير نَهْر، ولا نفض يدين، فضلاً عن الصُّراخ والضرب والتعنيف.

وحين شكا رجلٌ خادمَه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قائلاً: إنه يُسيءُ ويظلم، أفاضربُه؟! فقال: "تعفو عنه كلَّ يوم سبعين مرَّة". أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي.

نعم، أيها المسلمون: إن من أعظم ما يتجلَّى فيه آدابُ التعامُل وكريمُ الأخلاق: مواقف الناس في مُعاملاتهم وبياعاتهم ومُداياناتهم: "رحمَ الله عبدًا سمحًا إذا باعَ، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى". أخرجه البخاري.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٨٠).

"ومن سرَّه أن يُنجيَه الله من كرب يوم القيامة فليُنفِّسْ عن مُعسر أو ليضعْ عنه". أخرجه مسلم.

أما التعامُل أمامَ مكر الماكرين، وخيانات الخائنين، وكُفر الكافرين؛ فقد قال الله لنبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ١٣).

ولو نظرَ المسلمُ إلى المُعاهَدات التي عقدَها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع غير المسلمين، لرأى فيها من

صُنوف التسامُح وحُسن الجِدال وضُروب العفو والصفح ما لا ينقضي منه العجَب: "من دخل دارَ أبي سُفيان فهو آمن، ومن أغلقَ عليه بابَه فهو آمن، ومن ألقى السلاحَ فهو آمن".

وقال لقريش يوم الفتح، وهم من هم في ماضيهم الأسود، وتاريخهم المظلم مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، وتعذيب المستضعفين، وإيذاء المؤمنين، لقد قال لهم: "ما تقولون أني فاعلٌ بكم؟!". فقالوا: أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريم، فقال: "أقولُ كما قال أخي يوسف: ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (يوسف:٩٢)، اذهبُوا فأنتمُ الطُّلقاء".

وحين قيل له: ادعُ على المشركين. فقال -صلى الله عليه وسلم-: "إني لم أُبعَث لعَّانًا، وإنما بُعثت رحمةً". أخرجه مسلم.

وبعد:

عباد الله!! إليكم ميزانًا لا يختلف، ومعيارًا لا يُطفَّف، أحبُّوا لغيركم ما تُحبُّون لأنفسكم، واكرهوا لغيركم ما تكرهون لأنفسكم، وأحسنوا كما تُحبُّون أن يُحسَن إليكم، وارضَوا من الناس ما ترضَونَه لأنفسكم، ولا تقولوا ما لا تُحبُّون أن يُقال لكم، ولا تظلموا كما لا تُحبُّون أن تُظلَموا، وافعلوا الخيرَ مع أهله ومع غير أهله؛ فإن لم يكونوا من أهله فأنتم من أهله.

يا عبد الله!! كم من بليَّة مُقبلة دفعَها معروفٌ لمسلم بذلته، أو همٌّ لمهموم فرَّجتَه، أو مُحتاجٌ في ضائقة أعنته، ومن قاسَ هجيرَ صنائع المعروف في الدنيا استظلَّ في ظلال النعيم في الجنَّة، وخيرُ الناس أتقاهُم وآمرُهم بالمعروف وأنهاهُم عن المنكر، وأوصلُهم لذي رحمِه، ومن يُخالطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهم خيرٌ ممن لم يُخالطِ الناس ولم يصبر على أذاهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (فصلت: ٣٤-٣٦).

ومن حُسن التعامُل وآدابه: اليقين الجازم بأنه لا أحد يخلو من العيوب؛ يقول سعيد بن المُسيِّب -رحمه الله-: "ليس من شريفٍ ولا عالمٍ ولا ذي فضل إلا وفيه عيوبٌ".

لكن من الناس من لا ينبغي أن تُذكَر عيوبُه؛ فمن كان فضلُه أكثرَ من نقصه ذهبَ نقصُه لفضله، وكم من الناس تنتقدُهم، فإذا رأيتَ غيرَهم حمدتَهم.

وقد قال نبيُّنا محمد -صلى الله عليه وسلم- في العلاقات الزوجية: "لا يفرَكُ مؤمنٌ مُؤمنةً، إن كرِهَ منها خُلُقًا رضيَ منها آخَر". رواه مسلم.

والناسُ -رحمك الله- يكرهون من لا ينسَى زلاتهم، ويُذكِّرهم بأخطائهم، ومُواجهةُ الناس بأخطائهم هي أقصرُ طريق للعداوة، ومن سترَ مسلمًا سترَه الله، والمُتَّقون هم الكاظمون الغيظَ والعافون عن الناس.

وقدِّر غيرَك تفُز بتقديره، وابتسم للناس يبتسموا لك، وتبسُّمُك في وجه أخيك صدقةٌ، إن استثارةَ العواطف النبيلة من نفوس الناس طريقٌ كريمٌ حكيم لكسبهم والتأثير فيهم.

وفي التعامُل -حفظك الله- اجتنب الحديثَ عن نفسك ونسبَ الفضائل لها، وإلقاء التبعَة على الآخرين، فما تتفاخَرُ به قد يراه الناسُ نقصًا وشذرًا، وأحسن الإنصات، والمُقاطعة في الحديث تجرحُ المشاعرَ، ومن لم يشكُر الناسَ لم يشكُر الله، ولا تظُنَّن بكلمة خرجَت من أحد سُوءًا وأنت تجدُ لها في الخير محمَلاً. فإن الناسَ -وأنت منهم- عواطفُ أولاً، ثم عقولٌ ثانيًا.

فاتقوا الله -رحمكم الله-؛ فمن حسُن خُلقُه بلغ درجةَ الصائم القائم، والمؤمنُ يألفُ ويُؤلَف، ولا خيرَ فيمن لا يألَفُ ولا يُؤلَف، وخيرُ الناس أنفعُهم للناس.

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد الحبيب المصطفى، وعن الصحابة أجمعين، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بعفوك وجُودك وإحسانك يا أكرم الأكرمين.



باب التفسير

تفسير سورة الزخرف

الحلقة السادسة

قال تعالى: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا
مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ
(٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ
بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ
(٦٥) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٦٦) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)» (الزخرف: ٥٩- ٦٧)

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى حَقِيقَةَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَقَالَ: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ»:

«إِنْ هُوَ» أَيْ عِيسَى عليه السلام «إِلَّا عَبْدٌ» لا رَبٌّ، وَلَا إِلَهٌ، وَلَا ابْنُ الْإِلَهِ، كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ هُوَ نَفْسُهُ، وَهُوَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا» (مريم: ٣٠)، «أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ» بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، «وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ» يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى، حَيْثُ خَلَقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى دُونَ أَنْ يَمَسَّهَا بَشَرٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: «قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ» (مريم: ٢٠- ٢١)، عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِنَا، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ آدَمَ، مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، ثُمَّ خَلَقَ عِيسَى مِنْ مَرْيَمَ دُونَ أَنْ يَمَسَّهَا ذَكَرٌ، فَتَمَّتِ الْقِسْمَةُ الرُّبَاعِيَّةُ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ الْبَرِيَّةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. «ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (مريم: ٣٤- ٣٥).

«وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا منكم مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ»:

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَلَوْ نَشَاءُ - مَعْشَرَ بَنِي آدَمَ - أَهْلَكْنَاكُمْ، فَأَفْنَيْنَا جَمِيعَكُمْ، وَجَعَلْنَا بَدَلًا مِنْكُمْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَخْلُفُونَكُمْ فِيهَا يَعْبُدُونَنِي. كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا» (النساء: ١٣٣) وَكَمَا قَالَ: «وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ» (الأنعام: ١٣٣). (جامع البيان (٨٩/٢٥)).

«وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ»: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم: هُوَ خُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ- رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقِرَاءَةُ الأُخْرَى: «وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ» أَيْ: أَمَارَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَى وُقُوعِ السَّاعَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ- رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ» أَيْ: آيَةٌ لِلسَّاعَةِ خُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَمَالِكٍ، وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِهِمْ. وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ أَخْبَرَ بِنُزُولِ عِيسَى عليه السلام قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِمَامًا عَادِلاً، وَحَكَمًا مُقْسِطًا. (ابن كثير: ٤/ ١٣٢و١٣٣).

وَقَدْ رَوَى كُلٌّ مِنَ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَالْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَةَ هَذِهِ الأَحَادِيثَ وَتَرْجَمُوا لَهَا: (بَابُ نُزُولِ عِيسَى عليه السلام).

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ- رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَأَجْمَعَتِ الأُمَّةُ عَلَى مَا تَضَمَّنَهُ الْحَدِيثُ الْمُتَوَاتِرُ مِنْ أَنَّ عِيسَى فِي السَّمَاءِ حَيٌّ، وَأَنَّهُ يَنْزِلُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ، وَيُفِيضُ الْعَدْلَ، وَتَظْهَرُ بِهِ الْمِلَّةُ، مِلَّةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وَيَحُجُّ الْبَيْتَ وَيَعْتَمِرُ، وَيَبْقَى فِي الأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً. (البحر المحيط:٢/٤٧٣).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَقَدْ تَضَمَّنَتْ تِلْكَ الأَحَادِيثُ أَنَّ عِيسَى عليه السلام يَنْزِلُ وَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَالَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: «بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ»، وَالأَحَادِيثُ الْكَثِيرَةُ الصَّحِيحَةُ الْمُنْتَشِرَةُ، وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يُحِيلُ ذَلِكَ وَلا يَرُدُّهُ، فَيَجِبُ الإِيمَانُ بِهِ وَالتَّصْدِيقُ بِكُلِّ ذَلِكَ، وَلا نُبَالِي بِمَنْ خَالَفَ ذَلِكَ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ، وَلا حُجَّةَ لَهُمْ فِي اعْتِمَادِهِمْ فِي نَفْيِ ذَلِكَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِقَوْلِهِ: «وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ» (الأحزاب: ٤٠)، وَبِمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ مِنْ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَلا رَسُولَ، وَلا بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ، وَلا عَلَى أَنَّ شَرْعَهُ لا يُنْسَخُ، وَهَذَا ثَابِتٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لأَنَّا نَقُولُ بِمُوجَبِ ذَلِكَ كُلِّهِ، لأَنَّ عِيسَى عليه السلام إِنَّمَا يَنْزِلُ لِقَتْلِ الدَّجَّالِ، وَلإِحْيَاءِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وَلِيَعْمَلَ بِأَحْكَامِهَا، وَلِيُقِيمَ الْعَدْلَ عَلَى مُقْتَضَاهَا، وَلِيَقْهَرَ الْكُفَّارَ، وَلِيُظْهِرَ لِلنَّصَارَى ضَلالَتَهُمْ وَيَتَبَرَّأَ مِنْ إِفْكِهِمْ، فَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَأْتَمَّ بِإِمَامِ هَذِهِ الأُمَّةِ، كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ» (صحيح البخاري ٣٤٤٩).



وَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَالَ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صلى الله عليه وسلم فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ لا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الأُمَّةَ». (صحيح مسلم ١٥٦)، (المفهم (٢٩٣/٧و٢٩٤)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا» أَيْ فَلا تَشُكُّوا فِيهَا وَلا تَرْتَابُوا فِي وُقُوعِهَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: «إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» (غافر: ٥٩)، وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ» (طه: ١٥-١٦).

وَأَقْسَمَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ عَلَى وُقُوعِهَا فَقَالَ: «وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا» (مريم: ٦٦- ٦٨)، وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُقْسِمَ عَلَى وُقُوعِهَا، فَقَالَ: «وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ» (يونس: ٥٣)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» (سبأ: ٣)، وَقَالَ تَعَالَى: «زَعَمَ

الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» (التغابن: ٧)، وقال تعالى: «إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ» (الحج: ٥-٧).

وقوله تعالى: «واتَّبِعُون هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ» من جُمْلَة كلام عيسى عليه السلام، يقول لبني إسرائيل: اتَّبِعُوني على ما جئتُكم به من توحيد الله عز وجل، فهذا هو الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، الذي أمرَكُم الله باتِّباعه، كما سيأتي بعد آيتين: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ».

«وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ»:

هذا بيانٌ لموقف بني إسرائيل من عيسى ابن مريم عليه السلام، يقول تعالى: «وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ» أي: الآيات الواضحات التي تدل على صدقه، وكونه رسول الله حقًّا، ومنها الإنجيل الذي أنزله الله عليه، ومنها إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، وإخباره إياهم بما يأكلون وما يدَّخرون في بيوتهم، «قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» من أمور دينكم، كما قال الله تعالى لنبيِّنا محمد صلى الله عليه وسلم: «وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (النحل: ٦٤)، «فاتَّقوا الله» بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، «وأطيعون» فيما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته بامتثال ما به أمر، وترك ما نهى عنه وزجر.

ثم يؤكد عليه السلام على ربوبية الله وألوهيته، فيقول: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ» الذي ربَّانا بنعمه، وتفضَّل علينا بآلائه، وأسبغ علينا نعمه ظاهرةً وباطنةً، وهذا هو توحيد الربوبية، وهو يستلزم توحيد الألوهية، ولذلك قال: «فاعبدوه»، فما دام الله تعالى هو الذي خلقنا فسوَّانا، وصوَّرنا فأحسن صورنا، ورزقنا من الطيبات، وجب أن نفرده بالطاعات والقربات، «هذا صراط مستقيم» لا اعوجاج فيه، ولا زيغ ولا إلحاد. فالصراط المستقيم هو إفراد الله بالعبادة، وترك عبادة كل ما سواه، ولذلك إذا كان يوم القيامة، يوبخ الله تعالى على رؤوس الأشهاد المشركين الذين عبدوا غيره، فيقول سبحانه: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ» (يس: ٦٠-٦١).

«فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ» أي الفرق المتحزِّبة، اختلافًا نشأ من بينهم، لا من قوله تعالى، ولا من قول عيسى، بل ظلمًا وعنادًا:

فأما اليهود ففرَّطوا في حقه عليه السلام وقصَّروا، ورموا أمه بالبهتان العظيم.

وأما النصارى فقابلوا تفريط اليهود وتقصيرهم بالإفراط والغلو، فمنهم من قال هو الله، ومنهم من قال ابن الله، ومنهم من قال ثالث ثلاثة.

والسعداء الموفقون قالوا عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

ولذلك قال تعالى: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ» والظلم هو الظلم الأكبر، وهو الكفر والشرك، كما قال تعالى: «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (البقرة: ٢٥٤)، وقال تعالى: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» (لقمان: ١٣)، ولذلك قال تعالى في موضع آخر: «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ» (الزخرف: ٦٥).



وَقَدْ قيل: إنَّ كلمةَ «فويْلٌ» كلمةُ زَجْرٍ ووعيد. وقيل: إنَّ الوَيْل وادٍ في جهنَّم، تستغيثُ جهنَّمُ بالله من شدة حرِّه، فكيف بساكنه؟!. نعوذ بالله من النار.

«هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون»:

يقول تعالى: ماذا ينتظر الكافرون إن لم يعذبهم الله في الدنيا؟! «هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون»، «فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ» (الأنبياء: ٤٠)، «يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ» (النور: ٢٥).

«الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين»:

الأخلاء جمع خليل، والخلة أعلى درجات المحبة، وهؤلاء الأحباب الذين تحابوا لغير الله، واجتمعوا على غير ذكره، يعادي بعضهم بعضا يوم القيامة، ويتبرأ بعضهم من بعض، «وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا» (المعارج: ١٠)، كما قال تعالى: «وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ» (العنكبوت: ٢٥) وقال تعالى: «قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ» (الأعراف: ٣٨-٣٩).

أما الذين تحابوا في الله، واجتمعوا على ذكره، فهم في الجنة متحابين، يأنس بعضهم ببعض، ويسعد بعضهم ببعض، ولذلك قال تعالى: «إلا المتقين» يعني فإنهم يزدادون يوم القيامة محبة وأخوة، وطهارة وصفاء ونقاء، كما قال تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (الأعراف: ٤٣)، وقال تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ» (الحجر: ٤٥-٤٨).

فالحب في الله فضله عظيم:

عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار». (صحيح البخاري: ١٦، ومسلم ٤٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابا في الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها قال إني أخاف الله. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه». (صحيح البخاري ٦٦٠).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى». قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟. قال: «هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس». وقرأ هذه الآية «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (يونس: ٦٢). (صحيح سنن أبي داود للألباني: ح٣٠١٢).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.



وقفات مع القصة في كتاب الله

قصة نزول عيسى (عليه السلام) في آخر الزمان

(وصف نزول عيسى وأعماله)

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحلقة الثامنة

الحمد لله الذي له الدين واصبًا، وإليه يعود الخلق كما بدأهم، منهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة، اللهم اهدنا فيمن هديت، وتولنا فيمن توليت.

أخي الكريم، آن الأوان أن نعيش مع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي تصف لنا الهيئة التي سينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام آخر الزمان، والمكان الذي سينزل به، والأعمال التي سيقوم بها، والأحوال المواكبة لنزوله ومدة بقائه على الأرض، ذلك الحق الذي سيدفع الباطل الذي نشره أعداء الله، ويصحح التحريف الذي حرفوه عن عمد وإصرار ليستخفوا بعقول البشر ويستحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله ويفسدوا في الأرض، ولنبدأ في المقصود راجين عون المعبود سبحانه وتعالى:

أولاً: مكان نزوله وهيئته عند نزوله:

روى الطبراني في الكبير عن أوس بن أوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ينزل عيسى ابن مريم عند المنارة البيضاء في شرقي دمشق». (صحيح الجامع: ٨٠٢٥).

أخرج أبو داود بإسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس بيني وبين عيسى نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل». (صحيح الجامع: ٥٢٦٥).

ثانيًا: إليك الآن أخي القارئ مجموعة من الأحاديث النبوية الكريمة والصحيحة في الصحيحين وغيرهما تصف لنا أعمال عيسى عليه السلام وعلاقته بمهدي آخر الزمان والدجال، ونبدأ بأهم أعمال عيسى عليه السلام نذكرها مجمله ثم نعلق عليها بمشيئة الله:

١- في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى

لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها».

٢- الحديث الثاني: في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». قال: «فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ: لَا إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ».

٣- الحديث الثالث: في صحيح مسلم في كتاب الحج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «والذي نفسي بيده ليُهلَن ابن مريم بفج الروحاء حاجًا أو معتمرًا أو ليثنيهما». وكذلك رواه أحمد.

(والروحاء: اسم لمكان يبعد عن المدينة حوالي سبعين كيلو مترًا طريق المدينة - بدر. (وهو ممر بين جبلين وعنده بئر ماء، ويُعرف الآن ببئر الروحاء).

٤- الحديث الرابع رواه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ رَجُلًا مَرْبُوعًا إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا إِلَّا الْإِسْلَامَ، وَيُهْلِكُ اللَّهُ فِي زَمَانِهِ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ وَتَقَعُ الْأَمَنَةُ عَلَى الْأَرْضِ حَتَّى تَرْتَعَ الْأُسُودُ مَعَ الْإِبِلِ وَالنِّمَارُ مَعَ الْبَقَرِ وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ وَيَلْعَبَ الصِّبْيَانُ بِالْحَيَّاتِ لَا تَضُرُّهُمْ، فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يُتَوَفَّى وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ». (صححه الشيخ أحمد شاكر في المسند برقم (٧٨٩٠)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٢١٨٢).

ومعنى: «عليه ثوبان ممصران» أي: ثوبان مصبوغان بصفرة.

٥- الحديث الخامس: وهو حديث طويل (رواه ابن ماجه ٤٠٧٧، وأفرده العلامة الألباني بمؤلف خاص أسماه (قصة المسيح الدجال ونزول عيسى ابن مريم، ط المكتبة الإسلامية عمان، ١٤٢١هـ)، ننقل بعض الفقرات منه استشهادًا:

وقال- أي النبي صلى الله عليه وسلم-: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ». وفي رواية: «وَأَمَّكُمْ مِنْكُمْ». قال ابن أبي ذئب: «تَدْرِي مَا أَمَّكُمْ مِنْكُمْ؟ قُلْتُ: تُخْبِرُنِي قَالَ: فَأَمَّكُمْ بِكِتَابِ رَبِّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ».

فرجع ذلك الإمام ليتقدم عيسى فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول له تقدم فصل، فيصلي بهم إمامهم.

«ثم يأتي الدجال جبل إيلياء فيحاصر عصابة من المسلمين»، «فيقول لهم الذين عليهم: ما تنتظرون بهذا الطاغية «إلا» أن تقاتلوه حتى تلحقوا بالله أو يفتح لكم. فيأتمرون أن يقاتلوا إذا أصبحوا».

«فبينما هم يعدون للقتال ويسوون الصفوف، إذا أقيمت الصلاة»، «صلاة الصبح»، «فيصبحون معهم عيسى ابن مريم» «فيقوم الناس، فإذا رفع رأسه من ركعته قال: سمع الله لمن حمده قتل الله المسيح الدجال وظهر المسلمون. فإذا انصرف قال: افتحوا الباب، فيفتح ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى، فيطلبه عيسى عليه السلام».

فيذهب عيسى بحربته نحو الدجال ،فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريه دمه في حربته فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتله فيهلكه الله عز وجل عند عقبة أفيق».

فيهزم الله اليهود، ويسلط عليهم المسلمون، ويقتلونهم فلا يتقي شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء: لا حجر ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة، إلا الغرقدة فإنها شجرهم لا تنطق إلا قال: يا عبد الله المسلم، هذا يهودي «ورائي» فتعال فاقتله.

ثم يلبث الناس بعده سنين سبعًا ليس بين اثنين عداوة.

فيكون عيسى ابن مريم «عليه الصلاة والسلام» في أمتي مصدقًا بمحمد صلى الله عليه وسلم على ملته حكمًا عدلا وإمامًا مهديًا مقسطًا فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب ويذبح

الخنزير، وتجمع له الصلاة ، ويضع الجزية ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير، وترفع الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد ». وبعد كلام طويل عن يأجوج ومأجوج:

«قال عليه الصلاة والسلام بعد القضاء على يأجوج ومأجوج وتطهير الأرض من زهمهم»، «ثم يرسل الله مطرًا لا يكنُّ منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك وردي بركتك.

فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرِّسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس ويكون الثور بكذا وكذا من المال، وتكون الفرس بالدريهمات، قال صلى الله عليه وسلم: طوبى لعيش بعد المسيح، طوبى لعيش بعد المسيح يؤذن للسماء في القطر ويؤذن للأرض في النبات فلو بذرت حبك على الصفا لنبت، ولا تشاح ولا تحاسد ولا تباغض» (يعني نعم العيش بعد نزول عيسى إلى الأرض).

وتنزع حمة كل ذات حمة، «وتقع الأمنة على الأرض».

فيمكث عيسى عليه السلام في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى، فيصلي عليه المسلمون. ونكتفي بهذا القدر من الفقرات التي كتبها الشيخ الألباني رحمه الله في هذا السفر العظيم الذي أشرنا إليه آنفًا، وقبل أن ننتقل إلى كلام آخر نحاول أن نزيل ما يتوهم أنه تعارض بين قول النبي صلى الله عليه وسلم: «فيمكث عيسى عليه السلام أربعين سنة». وبين قوله صلى الله عليه وسلم: «ثم يلبث بعده سنين سبعًا ليس بين اثنين عداوة».

قال الشيخ الألباني رحمه الله: المقصود أن يلبث الناس بعد هلاك الدجال سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، وهذا لا ينافي أن عيسى يمكث في الأرض أربعين سنة.

وقد ضعّف الشيخ الرواية التي وردت وتفيد أن عيسى عليه السلام يمكث في الأرض سبع سنين، ورد قول الحافظ في الفتح وخلص رحمه الله إلى القول أن الذي يلبث سبع سنين هم الناس وليس عيسى عليه السلام فلا إشكال، والحمد لله.

وبمراجعة الأحاديث السابقة نلاحظ ما يلي:

١- وصف لنا النبي صلى الله عليه وسلم هيئة عيسى عليه السلام ومكان نزوله، وهذه نظرة سريعة إلى أهم أعمال عيسى عليه السلام، ولنا عودة.

٢- أوضح لنا سياق الأحاديث أن عيسى عليه السلام لن يأتي بشريعة جديدة، ولكنه سيكون حكمًا عدلاً إمامًا مهديًا يحكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيكون مأمومًا في الصلاة خلف العبد الصالح المهدي حين يتزامن نزول عيسى مع وجود المهدي الذي سيكون من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم واسمه على اسم النبي.

٣- سيكون عيسى عليه السلام داعيًا إلى الإسلام تبعًا للنبي الأمي الذي بشر به قومه حين بعثه الله قبل رفعه فكذبه اليهود واتهموه بالسحر.

٤- استمر كذب اليهود على عيسى عليه السلام حتى ادعوا قتله وصلبه، ولكن الله أنقذه منهم ورفعه إليه وهو الآن حي عند الله عز وجل إلى أن ينزل على الأرض آخر الزمان ويموت ويصلي عليه المسلمون.

٥- يبقى عيسى عليه السلام على الأرض أربعين سنة على الصحيح من أقوال أهل العلم يقاتل خلالها أعداء الله من اليهود ومن غيرهم ولا يقبل من أحد غير الإسلام الذي اختاره الله لعباده.

٦- بعد أن يتحقق القضاء على أعداء الدين من اليهود والدجال ويأجوج ومأجوج الذي سيتزامن ذلك كله مع نزول عيسى وفي مدة بقائه بهم؛ ينشر السلام بعد إقامة العدل وتكثر البركة ويعم الأمن بسبب عودة الناس إلى توحيد رب العالمين الذي سيعم الأرض كلها، وبذلك يحق الله على يد عيسى عليه السلام كلمته، ويتم عليهم نعمته كما أتمها على هذه الأمة التي لا أمة بعدها، وهذا النبي الذي لا نبي بعده.

وللحديث بقية إن شاء الله.

باب السنة

حجة الله البالغة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

روى الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ).



إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

عزو الحديث إلى الكتب الستة:

تفرد الإمام مسلم برواية هذا الحديث عن أصحاب الكتب الستة فأخرجه في كتاب الايمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام، (١٣٤/١)، قال: حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: وَأَخْبَرَنِي عَمْرٌو، أَنَّ أَبَا يُونُسَ حَدَّثَهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فذكره.

فائدة إسنادية في قول ابن وهب: «وأخبرني عمرو»، بذكر الواو فما فائدتها؟

الجواب: رواية ابن وهب عن عمرو إنما هي صحيحة، وقد روى ابن وهب عن عمرو جملة من الأحاديث، فذكر في أول حديث قال: أخبرني عمرو، ثم قال وأخبرني عمرو ثم قال وأخبرني عمرو وهكذا، أي: أن الواو هذه ذكرت بعد ذلك مع كل حديث وغابت فقط ولم تذكر مع الحديث الأول، وهذا الحديث ليس هو الحديث الأول، وكان يمكن تركها أيضا في هذا الحديث، فلو حذفها لجاز، ولكن لأن يونس سمعها هكذا ولأمانة هؤلاء الرواة وتدقيقهم نقلها كما سمعها، وفيه ردّ على المشككين في عدالة نقلة السنة النبوية.

المعنى الإجمالي

يوضح النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث إحدى عقائد الإسلام، وهي عموم بعثته -صلى الله عليه وسلم- إلى الناس كافة من عرب وعجم وإنس وجن، لا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى وحر وعبد، فالكل سواء في وجوب الإيمان به والدخول في طاعته، ولا نجاة لأحد سمع به وعرف دعوته إلا بالإيمان به، ولو كان كتابياً من اليهود والنصارى، فضلاً عن غيرهم من الوثنيين والملحدين. قال الله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (سبأ:٢٨). وقال: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» (الفرقان:١). وقال: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (الأنبياء:١٠٧).

الشرح:

قوله: (وَالَّذِي) أَيْ: وَاللَّهِ الَّذِي (نَفْسُ مُحَمَّدٍ) أَيْ: رُوحُهُ، وَذَاتُهُ، وَصِفَاتُهُ، وَحَالَاتُهُ، وَإِرَادَتُهُ، وَحَرَكَاتُهُ، وَسَكَنَاتُهُ (بِيَدِهِ) أَيْ كَائِنَةٌ بِنِعْمَتِهِ، وَحَاصِلَةٌ بِقُدْرَتِهِ، وَثَابِتَةٌ بِإِرَادَتِهِ، وَوَجْهُ اسْتِعَارَةِ الْيَدِ لِلْقُدْرَةِ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَظْهَرُ سُلْطَانُهَا فِي أَيْدِينَا، وَهِيَ مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ. (قاله في مرقاة المفاتيح).

قلت: وَمَذْهَبُ السَّلَفِ فِيهَا أنهم يعلمون معانيها ويمررونها على ظاهرها مع تَفْوِيضِ عِلْمِ كيفيتها إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَعَ التَّنْزِيهِ عَنْ ظَاهِرِهِ، وذلك كَقَوْلِ مَالِكٍ الْمَشْهُورِ فِي الِاسْتِوَاءِ: «الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة» فلم يكن السلف يسألون عن الكيف، بل ويبدعون مجرد السؤال

تنطعًا.

قوله: (لا يسمع بي أحد) لا يَعْلَمُ بِرِسَالَتِي (أَحَدٌ) أَيْ: مِمَّنْ هُوَ مَوْجُودٌ أَوْ سَيُوجَدُ « (مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ) أَيْ: أُمَّةِ الدَّعْوَةِ والتي تشمل الكل، وهي غير أمة الإجابة التي استجابت للدين الحق قوله: (يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِي): صِفَتَانِ لـ» أَحَدٌ «، أَوْ بَدَلَانِ عَنْهُ، بَدَلُ الْبَعْضِ مِنَ الْكُلِّ وتخصيص اليهود والنصارى بالذكر لأنهم بقايا أهل الكتاب. (ثُمَّ يَمُوتُ): فيه إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ وَلَوْ تَرَاخَى إِيمَانُهُ وَوَقَعَ قَبْلَ الْغَرْغَرَةِ نَفَعَهُ (وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) أَيْ: مِنَ الدِّينِ الْمَرْضِيِّ عند الله.

قوله: (إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) أَيْ مُلَازِمِيهَا بِالْخُلُودِ فِيهَا، وَأَمَّا الَّذِي سَمِعَ وَآمَنَ فَحُكْمُهُ عَلَى الْعَكْسِ، وَأَمَّا الَّذِي لَمْ يَسْمَعْ وَلَمْ يُؤْمِنْ فَهُوَ خَارِجٌ عَنْ هَذَا الْوَعِيدِ، وَتَقْدِيرُهُ: لَيْسَ أَحَدٌ يَسْمَعُ بِهِ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ، أَوْ غَيْرُ مُؤْمِنٍ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ. (ينظر: مرقاة المفاتيح: ١/٧٦) بتصرف.

من أهم ما يستفاد من الحديث:

١- عموم بعثته صلى الله عليه وسلم، وأن كل دين (شريعة) سابق على دين الإسلام فهو منسوخ به.

وهنا يرد على شبهة من يسأل: وهل معنى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أن الذي يكذب به ولا يؤمن بعدما وصلته الرسالة (كالوثنيين واليهود والنصارى وغيرهم ممن مات على الكفر) لا يدخل الجنة؟ وهل مجرد الإقرار ببعثته كبعض من يدعي ذلك - يكفي للنجاة من النار أم لا بد من الإيمان به واتباعه؟

في جوابنا على هذا نقول:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في مجموع الفتاوى (٤٩/١٢): قد ثبت في الكتاب، والسنَّة، والإجماع: أن من بلغته رسالته صلى الله عليه وسلم فلم يؤمن به: فهو كافر، لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد؛ لظهور أدلة الرسالة، وأعلام النبوة.

قلت: وهوقول مجمل من شيخ الاسلام رحمه يحتاج إلى تفصيل لأن من أضر ما يوقع الناس في البدع العمومات والإجماليات الذي قد يفسر من بعض الناس خطأ فيقعون في المخالفات وهم لا يشعرون لذا سيأتي تفصيل لكلام شيخ الاسلام في موضعه في طيات المقال.

- وفي تقريره لذلك قال الإمام النووي- رحمه الله- عند شرحه لهذا الحديث على مسلم: «أَمَّا الْحَدِيثُ فَفِيهِ نَسْخُ الْمِلَلِ كُلِّهَا، ودليلنا على هذا مما قرره علماء السلف- بخلاف حديث الباب -: ما وصف الله به اليهود والنصارى في سورة الفاتحة باليهود (المغضوب عليهم) والنصارى (الضالين)، وإن كان المشتبه عليه يجهل هذا نقول له فماذا نفعل في صريح قوله تعالى في شأن النصارى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ المائدة/١٧، وقوله تعالى في شأن اليهود والنصارى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ).

وقوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٠، ٣١).

وما سبق هو ما نقله وقرره من المعاصرين شيخنا فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأسبق الشيخ جاد الحق علي جاد الحق رحمه الله في كتابه الماتع (بيان للناس) ط/جامعة الأزهر سنة١٩٩٤م وقد تناول هذه القضية ببراعة علمية ووسطية دعوية مع غيرها من بعض القضايا المعاصرة فليراجعه ويستمتع به من أراد الزيادة.

وكذلك أكد عليه ووضحه من مشايخنا في الأزهر الشريف فضيلة الشيخ عطية صقر رئيس لجنة الفتوى وذلك بفتاوى الأزهر المجلد ٨/ص٢٨

إن تقريرنا وقولنا بعدما ذكر من الآيات الواضحات: لقد قام الإجماع على كفرهم إنما هو مجرد تحصيل لحاصل وتقرير لبدهي لا يحتاج إلى برهان.

وذكرنا لليهود والنصارى تحديدا لأنه قد يكونا هما موضع الشبهة وعينها، ثم نقول لمن لبس عليه من الناس وللذي لا يعلم ما نقلناه عن عقائد اليهود والنصارى الشركية: ما موقف هؤلاء من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ هل هم مؤمنون به، مصدقون له أم مكذبون له ولرسالته؟ لعله لا يخفى على أحد كفرهم بنبينا صلى الله عليه وسلم وقد قال

الله في شأن هـؤلاء وأمثالهم: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا) (النساء ١٥٠/١٥١).

هـذا و إنـنا بعد ذلك نقـول: إذا كان هذا الوعيد في شأن اليهود والنصارى وهم أهل كتاب فما بالنا بالملحدين من غير هؤلاء؟! لاشك أن الحكم يشملهم من باب الأولى.

لذا وبعد هذه الآيات الواضحات فإننا نؤكد أنه لا ينفع قول من يقول: نؤمن برسولنا ولا شأن لنا برسولكم محمد صلى الله عليه وسلم نظل على ديننا ولاندين بـالاسـلام مع زعـمـهـم الاقــرار ببعثته، نـقـول لـهـم هــذا قـول مرفوض لأنـه لو صدق بالنبي صلى الله عليه وسلم لاتبعه وآمن بدينه وفعله هذا لا يفسر إلا أنه نوع من أنـواع الكذب والعناد والاستكبار وهـو ككفر اليهود الذين شهدوا أن الرسول حق ولم يتبعوه كما لايغرنهم بذلهم المعروف للمسلمين فقد بذله أبوطالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي تعريفه لذلك يقول ابن القيم في (مدارج السالكين ٣٣٧/١):

((وأمـا كفر الإبـاء والاستكبار: نحو كفر إبليس؛ فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بـالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول، وأنـه جـاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباء واستكبارا، وهو الغالب على الكفار)).

وفي بيـانـه لـذلـك قــال محـدث العصر الشيخ الألـبـانـي -رحمه الله- في كتابه «فتنة التكفير»، والـذي قـرظـه سماحة الشيخ العلامة: عبد العزيز بن باز- رحمه الله- قال في الفصل الثاني تحت عـنـوان كفر الـرد: (لا بد لتحقيق الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسـلـم وبمـا جـاء به من تصديقه والالــتـزام المجمل بالشريعة باطناً وظاهراً. وكما أنــه لا يكفي لتحقيق الإيمـان مجرد تحقيق الالتزام بالشريعة دون التصديق؛ فكذلك لا يكفي مجـرد التصديق دون تحقيق الالتزام الإجمالي.

وذلـك أن الاقـــرار بـأن محمداً رسول الله يستلزم قبول ما جاء به تصديقاً وانقياداً، لأن قبول ما جاء به صلى الله عليه وسلم من الخبر يكفي فيه مجرد الاعتقاد والتصديق، وأما الطلب فلابد مع التصديق من تحقيق الالتزام كما قال تعالى «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله»، وعلى هذا فكفر الرد إما أن يكون بالتكذيب والاستحلال المناقض للتصديق، وإما أن يكون بالتولي والإعراض المناقض للالتزام، سواء الالتزام البـاطـن أو الالــتــزام الـظـاهـر.

وكل هذا داخل في كفر العناد الذي يكون بعد تبين الحجة الرسالية وظهورها للمعين، بحيث لا يكون تكذيبه واستحلاله وتلبسه بما يناقض الالتزام المجمل عن تأول وشبهة يعذر بها.

ثـم يـقـول رحـمـه الله في نفس السياق بنفس المـصـدر مبينا عقوبة هـذا الـذي عـرف الحق وأعـرض عنه: ((لكن من قامت عليه الحجة بالرسالة فعاند واستكبر وكذب الرسول ولم يرض باتباعه قد لا يوفق إلى الهداية ومعرفة الحق بعد جحوده أولاً.

بـل إن من عقوبة الله للمعاند أن يضله سواء السبيل، جزاء وفاقاً لما اختاره هو من ذلك «قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا» (مريم/٧٥)، فينقلب كفر العناد الـذي يكون عـن بينة إلـى كفر ضلالة أو كفر غواية، بحيث يعلم الكافر آيـات وتقوم بها الحجة عليه، لكنه لا يوفق لقبولها، بل يقوم بقلبه ما يحسب معه أنـه على حق، وكذلك المتخاذل عن الطاعة قد يزين له عمله السيئ، وهـذه غاية الخـذلان، نعوذ بالله من ذلك)).

ومما يستفاد من الحديث ومما هو من الأهمية بمكان لكونه من أهم عقائد أهل السنة والتي تمايزهم عن أهل البدع والضلالة:

أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح، وأن الجـاهـل معذور بجهله حتى تقام الحجة عليه.

وأن من بلغته الدعوة من الأعاجم ولم يفهمها فهو معذور كمن لم تبلغه الدعوة أصلا.

وذلـك يستفاد بداية من قوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحـديـث (لا يسمع بي أحـد) فاشترط رسـول الله صلى الله عليه وسلم سماع المرء به لإقامة الحـجـة عليه، هـذا فضلاً عن توافر أدلة الشرع الدالة على ما قـررنـاه من عقيدة أهـل السنة والجـمـاعـة في عـذرهـم للجاهل بجهله والتي منها قوله تعالى: «ومـا كـنـا معذبين حـتـى نبعث رسولا» (الإسراء: ١٥)، وغيرها من الآيـات والأحـاديـث المتوافرة والتي سبق أن أفـردنـا لها مقالا بعنوان (الحمد لله هذا ديننا) في

مجلتنا الغراء.

ويقرر هذه العقيدة (شرط إقامة الحجة وعذر الجاهل بجهله) ويفصلها من علماء السلف شيخ الإسلام تقي الدين أبوالعباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (الشهير بابن تيمية) في مجموع الفتاوى (ج٣/٢٣٠)، ط/دارالوفاء قائلا: ((وَكُنْت دَائِمًا أَذْكُرُ الْحَدِيثَ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي قَالَ: « «إذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ ذَرُونِي فِي الْيَمِّ فَوَاَللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيَّ لَيُعَذِّبَنِي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا مِنْ الْعَالَمِينَ، فَفَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْت. قَالَ خَشْيَتُكَ؛ فَغَفَرَ لَهُ» . فَهَذَا رَجُلٌ شَكَّ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ وَفِي إعَادَتِهِ إذَا ذُرِّيَ، بَلْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ لَا يُعَادُ، وَهَذَا كُفْرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، لَكِنْ كَانَ جَاهِلًا لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ وَكَانَ مُؤْمِنًا يَخَافُ اللَّهَ أَنْ يُعَاقِبَهُ فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ))

وحاصل ما تقدم: أن من وقع في الكفر جاهلاً أو متأوّلا لا يكفَّر، حتى تقام عليه الحجّة الشرعيّة، وتزال ما عنده من شبه أو تأويل باطل؛ فإن الحكم على المعيَّن بالكفر لا بد فيه من توفر الشروط، وانتفاء الموانع، وإقامة الحجة، والله أعلم.

هذا وإذا تقرر لدينا ضرورة إقامة الحجة فإنه يرد علينا سؤال مهمٌ وهو: هل يشترط في إقامة الحجة فهمها أم أن إقامتها هو مجرد عرضها؟

والجواب: أن هذه المسألة فيها خلاف بين أهل العلم لكننا نرى أنه خلاف ظاهري لا جوهري، وأن خلاصة القول في المسألة أن الحجة إذا لم تعرض بطريقة تفهم فما فائدتها؟

وفي هذا كلام نفيس لشيخ الإسلام رحمه الله في (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) (٢/١١٤) قال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: «فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ» قد علم أن المراد أنه يسمعه سمعًا يتمكن معه من فهم معناه، إذ المقصود لا يقوم بمجرد سمع لفظ لا يتمكن معه من فهم المعنى، فلو كان غير عربي لوجب أن يترجم له ما تقوم به عليه الحجة، ولو كان عربيا وفي القرآن ألفاظ غريبة ليست من لغته، وجب أن نبين له معناها، ولو سمع اللفظ كما يسمعه كثير من الناس ولم يفقه المعنى، وطلب منا أن نفسره له ونبين له معناه، فعلينا ذلك، وإن سألنا عن سؤال يقدح في القرآن أجبناه عنه، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أورد عليه بعض المشركين أو أهل الكتاب أو المسلمين سؤالا يوردونه على القرآن، فإنه كان يجيبهم عنه».

و في تأكيده لذلك وبيان نوع هذا الفهم وأن المقصود به ليس الفهم التفصيلي وأن العبرة ليست فقط بإقرار المبلغ أنه فهم بل الأهم من ذلك تقدير المبلغ له أنه أفهمه يقول ابن القيم رحمه الله في (طريق الهجرتين (ص:٤١٢):

«العبرة في قيام الحجّة بأن يفهمها ذلك الشخص المعيّن فهما يدرك به مخالفته للحجّة التي يكفر بخلافها، ولا يشترط فهمه لها فهما دقيقا، كما يفهمها أهل العلم والإيمان، كما لا يشترط إقراره بالفهم بل يرجع ذلك لتقدير المبلغ له هل فهمه أو لم يفهمه، لأنّ كثيرا من أهل الكفر والنّفاق ينكرون الحجّة بعد فهمهم لها وعلمهم بها كما أخبر الله تعالى بذلك عن قوم فرعون في قوله: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا»».

ولذا قال رحمه الله (في نفس المصدر السابق ص٤١٤) مبينا أن قيام الحجة ليس له ضابط ثابت وإنما تختلف بحسب فهم الناس واختلاف الأزمنة والأمكنة مما يبين أن دين نا دين فهم ومعان وليس فقط دين مظاهر ومبان كما يدعي علينا البعض:

«إن قيام الحجّة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص؛ فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان؛ وفي بقعة وناحية دون أخرى؛ كما أنها تقوم على شخص دون آخر؛ إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون؛ وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له؛ فهذا بمنزلة الأصمّ الذي لا يسمع شيئا ولا يتمكّن من الفهم).

قلت: وفي جميع ما سبق عرضه من اشتراط الشارع قيام الحجة وفهمها ما يؤكد على رحمة هذا الدين وعموم بعثة نبي الرحمة للثقلين جميعًا، وأنه حجة من الله عليهم أجمعين.

درر البحار في تحقيق ضعيف الأحاديث القصار

الحلقة (٣٦)

إعداد / علي حشيش

٣٤٨- " مَنْ حَجَّ الْبَيْتَ وَلَمْ يَزُرْنِي فَقَدْ جَفَانِي ".

الحديث لا يصح: أخرجه ابن حبان في «المجروحين» (٧٣/٣)، وابن عدي في «الكامل» (١٤/٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١٢٧/٢) من حديث محمد بن النعمان بن شبل عن جده عن مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعًا، وعلته النعمان بن شبل، قال ابن حبان: «يأتي عن الثقات بالطامات، وعن الأثبات بالمقلوبات».

وذكره الذهبي في «الميزان» (٩٠٩٥/٢٦٥/٤)، قال: النعمان بن شبل الباهلي بصري، قال موسى بن هارون: كان متهمًا، ثم أورد هذا الحديث، ثم قال: «هذا موضوع». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٥/٢٧): «لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث، بل هو موضوع على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعناه مخالف للإجماع، فإن جفاء الرسول صلى الله عليه وسلم من الكبائر، بل هو كفر ونفاق». اهـ.

ملحوظة: ولنا بتوفيق الله وحده بحث دقيق حول هذا الحديث نشرته مجلة التوحيد- حفظها الله- في عدد المحرم ١٤١١هـ في سلسلة «الدفاع عن السنة» (٤٠) في أكثر من تسعين سطرًا، ردًا على أحد رؤساء قسم العقيدة بجامعة الأزهر، حفظها الله وعفا الله عنا وعنه.

٣٤٩- " مَنْ طَافَ أُسْبُوعًا فِي الْمَطَرِ غُفِرَ لَهُ مَا سَلَفَ مِنْ ذُنُوبِهِ ". ومعنى «أسبوعا» أي طاف سبعة أشواط.

الحديث لا يصح: أورده الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» في كتاب «الحج»، وقال: «قال الصغاني: هو باطل لا أصل له». اهـ.

قلت: أورده الصغاني في «الموضوعات» (ح١٤٤)، وقال: «رواه أبو عقال عن أنس في «الطواف بالمطر» باطل لا أصل له». اهـ.

قلت: ذكره ابن حبان في «المجروحين» (٨٦/٣) قال: «هلال بن زيد بن يسار أبو عقال، كان ممن يروي عن أنس بن مالك أشياء موضوعة ما حدث بها أنس قط، منها رواية الثقات عنه، ورواية الضعفاء جميعًا لا يجوز الاحتجاج به بحال، ولا ذكر حديثه إلا على جهة الاعتبار». اهـ.

٣٥٠- " بينما نحن نطوف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ رأينا بَرَدًا وَنَدَاءً. قلنا: ما هذا يا رسول الله؟ قال: عيسى ابن مريم يُسَلِّم عليَّ ". اهـ.

الحديث لا يصح: أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١١٨/٧) من حديث هلال بن زيد أبو عقال من حديث أنس بن مالك مرفوعًا. قال ابن عدي: "أبو عقال عامة أحاديثه بهذه الأسانيد غير محفوظة". اهـ.

٣٥١- " يُدْخِلُ اللَّهُ بِالْحَجَّةِ الْوَاحِدَةِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ: الْمَيِّتَ، وَالْحَاجَّ، وَالْمُنْفِذَ ".

الحديث لا يصح: أخرجه البيهقي في «السنن» (١٨٠/٥)، وابن عدي في الكامل (٣٤٢/١) من حديث أبي معشر عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعًا، وعلته أبو معشر، قال البخاري في «الضعفاء الصغير» (٣٨٠): «نجيح أبو معشر منكر الحديث»، وهذا المصطلح عند البخاري له معناه فقد بينه السيوطي في «تدريب الراوي» (٣٤٩/١) قال: «البخاري يطلق (فيه نظر) و(سكتوا عنه) فيمن تركوا حديثه، ويطلق (منكر الحديث) على من لا تحل الرواية عنه».

لذلك أورده الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» كتاب «الحج» (ح١٣)، ولذلك قال المعلمي اليماني في «تحقيق الفوائد»: «فانحصر النظر في أبي معشر وهو ضعيف جدًا ولا سيما في بعض شيوخه ومنهم ابن المنكدر، ومع ذلك اختلط قبل موته بمدة».

٣٥٢- " مَن شيَّع حاجًا أربعين خطوة، ثم عانقه وودَّعه، لم يفترقا حتى يغفر الله له"، وفي لفظ "أربعمائة خطوة".

الحديث لا يصح: أورده الشوكاني في «الفوائد» (ص١١١) وقال: «في إسناده وضَّاع». قلت: وأورده ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢٦/٢) وعزاه إلى الديلمي من حديث فضالة بن عبيد وقال: فيه محمد بن سعيد البورقي. اهـ.

قلت: ذكره الذهبي في «الميزان» (٧٦٠٦/٥٦٦/٣) قال: «محمد بن سعيد البُورقي كان أحد الوضَّاعين، قال حمزة السهمي: كذَّاب حدَّث بغير حديث وضعه». اهـ.

٣٥٣- " الْجُمُعَةُ حَجُّ الْفُقَرَاءِ "، وفي لفظ: " الْجُمُعَةُ حَجُّ المساكين ".

الحديث لا يصح: أخرجه القضاعي (٧٨) وقال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١٣٣/٤): «حديث الجمعة حج المساكين أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» من حديث ابن عباس بسند ضعيف». اهـ.

قلت: ودرجة الضعف أنه شر الحديث الضعيف كذا في «التدريب» (٣٧٤/١)؛ لأن الحديث موضوع فهو من طريق عيسى بن إبراهيم الهاشمي عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعًا، ومقاتل ذكره الحافظ الذهبي في «الميزان» (٨٧٤١/١٧٣/٤)، وذكر عن وكيع أنه قال: كان كذابًا، وقال البخاري: سكتوا عنه، وقال يحيى: ليس حديثه بشيء، وقال الجوزجاني: كان دجالاً جسورًا. اهـ.

وعيسى بن إبراهيم بن طهمان الهاشمي ذكره الذهبي في «الميزان» (٦٥٤٦/٣٠٨/٣) ونقل عن البخاري أنه قال فيه: منكر الحديث، وقال يحيى: ليس بشيء، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال النسائي: متروك الحديث.

٣٥٤- " سُفَهَاءُ مَكَّةَ حَشْوُ الْجَنَّةِ ".

الحديث لا يصح: أورده الحافظ السخاوي في «المقاصد» (ح٥٦٤) وقال: «قال شيخنا- يعني: ابن حجر- لم أقف عليه». اهـ. قلت: وذكره الشوكاني في «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» (ص١١٣)، ونقل ما قاله الحافظ السخاوي وأقره، وأورد هذا الحديث الإمام الذهبي في «الميزان» (٩٢٦٧/٣١٣/٤)، وجعله من مناكير أبي عقال.

وصايا للحجيج



إعداد/ عبده أحمد الأقرع

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

فإن من أعظم علامات اليُمن، وأمارات الخير، وتباشير النصر لهذه الأمة العظيمة العزيزة بدينها، حبُّها لبيت ربها، تشتاق إليه النفوس، وتتلهف له القلوب، وتثور شجون الحب، وتضج بلابل القلب، وتنفق فيه الأموال، وتُترك من أجله الأوطان، طاعة وعبودية لله، واستجابة لنداء الواحد الديان، لترتوي النفوس، وتطمئن القلوب، وتزكو الجوارح، لتزداد من الحسنات، وتتقرب إلى رب الأرض والسماوات، وترجو الجنات والنجاة من النيران، وتقرّ الأعين بالكعبة والحطيم وزمزم والمقام، دعوة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام: «رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ» (إبراهيم:٣٧).

وفي هذه الأيام المباركة يفد المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج امتثالاً لأمر الله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» (آل عمران:٩٧)، وقوله سبحانه: «وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» (الحج:٢٧). راجين ما أعده الله لهم من عظيم الأجر. عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ حَجَّ لله فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ". (البخاري: ١٥٢١، ومسلم: ١٣٥٠)، وعنه أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ". (البخاري: ١٧٧٣، ومسلم: ١٣٤٩).

وها أنت أخي المسلم قد اصطفاك الله واختارك من بين الملايين من البشر لتكون من جملة حجاج بيت الله الحرام هذا العام، فهذه نعمة من أجلّ النعم، ومنة من أعظم المنن، نعمة تستوجب الشكر، ومنة تستوجب الحمد. عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحجاج والعُمار وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم». (صحيح الترغيب: ١١٠٧).

فعليك أخي الحاج أن تُجرد الهمة لهذه المهمة التي كتبها الله عليك وجعلها أحد مباني الإسلام، لترجع بحج مبرور، وذنب مغفور، وتجزى بالجنة، فتغسل حوبتك، وتعلن توبتك، وترجع من ذنوبك كيوم ولدتك أمك، صافيًا نقيًا كالثوب الأبيض المنقى من الدنس.

واليك أخي الحاج بعض التوصيات لتكون على بينة من دينك:

أولاً: يجب على الحاج وغيره أن يخلص نيته وقصده لله تعالى

فيعمل عمله خالصًا لوجهه الكريم حتى يقع أجره على الله، وينال ثوابه، قال الله تعالى: «وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ» (البينة:٥). فلا رياء، ولا سمعة، ولا انصراف عن الله إلى غيره، وذلك أن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتغي به وجهه. عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ". (صحيح مسلم: ٢٩٨٥).

فمن حج يبتغي الذِّكْر والصيت انقلب إليه عمله، ولم يرفع فوق رأسه.

ثانيًا: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

فالإخلاص لله دون متابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكفي ولا يجزئ، فأبى الله أن يقبل عملاً إلا إذا أخلص فيه صاحبه لله وجرَّد المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو القائل عليه الصلاة والسلام: «خذوا عني مناسككم». (مسلم: ١٢٩٧).

وحذر صلى الله عليه وسلم من مخالفته، فقال صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». (البخاري: ٢٦٩٧، ومسلم: ١٧١٨). وفي رواية: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد». (مسلم: ١٧١٨). أي: مردود عليه، غير مقبول.

ثالثًا: اجتناب الشرك بأنواعه وأشكاله:

وذلك أن الشرك أعظم ذنب عُصيَ الله به، وهو محبط للعمل، قال الله تعالى: «وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ» (الزمر: ٦٥- ٦٦). والمعنى: لئن أشركت يا محمد ليبطلن عملك الصالح، ولتكونن في الآخرة من جملة الخاسرين بسبب ذلك، وهذا على سبيل تعليم أمته، وإلا فالرسول صلى الله عليه وسلم قد عصمه الله وحاشا أن يشرك بالله، وهو الذي أرسله الله لإقامة صرح التوحيد.

فالشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل.

فالعبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشرك فيها فسدت كالحدث إذا دخل في الصلاة، وأعظم مقاصد الحج تحقيق التوحيد لله، والبعد عن الإشراك به، يقول سبحانه: «وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا» (الحج:٢٦)، فلا يجوز أن يلجأ العباد في قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، وشفاء مرضاهم إلا لمن بيده وحده تصريف الأمور، ودفع الشرور، لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه، فالتوكل على الله وحده، وتفويض الأمور إليه دون غيره، واعتقاد أنه مالك النفع والضر دون سواه، أمورٌ يجب على المسلم أن يعتقدها دينًا لله الواحد الأحد، لا يشرك فيها أحدٌ من الخلق، قال الله تعالى: «قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ» (الزمر:٣٨). وقال الله تعالى: «وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ» (يونس:١٠٧)، فعلق قلبك بربك أيها الحاج، وضع نصب عينيك وصية المصطفى صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». (أحمد: ١/٢٩٣).

رابعًا: التوبة النصوح ورد المظالم:

على الحاج أن يتوب من ذنوبه توبة نصوحًا، قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا» (التحريم:٨). وإن للتوبة النصوح شروطًا:

الأول: الإقلاع عن الذنب، بأن يخلع نفسه من الذنب كما يخلع قميصه.

الثاني: الندم على ما فات، والتأسف عليه.

الثالث: العزم على ألا يعود إلى هذا الذنب أبدًا.

الرابع: أن تقع التوبة حال الصحة والعافية قبل اليأس من الحياة ومعاينة ملك الموت، قال الله تعالى: «وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا» (النساء:١٨).

الخامس: إذا كان الذنب متعلقًا بعباد الله فإن على التائب أن يرد على العباد حقوقهم إن استطاع، وأن يتحللهم إن أمكن.

خامسًا: الاستعداد للحج بالعلم النافع، والفقه في أحكام المناسك:

فالمسلم إنما يعبد الله على بصيرة وعلم، وإذا أوجب الله على العبد أن يحج إلى بيته، وجعل ذلك أحد أركان دينه، كان من الواجب على المسلم أن يتعلم ما يلزمه في حجه. فمن الخطأ أن تجد الرجل يحج، ويقتحم أبواب هذه العبادة بغير علم، وإنما يبني عبادته على شيء يظنه أو سمعه ممن لا علم له، ثم يذهب بعد وقوع المحذور في حجه مستفتيا أهل العلم؛ وكان الواجب عليه أن يعلم قبل أن يعمل. قال الإمام البخاري في كتاب العلم: «باب: العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى: « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ » (محمد:١٩). فبدأ بالعلم. (فتح الباري: ١/ ٦١).

فلا يجوز أن يُعبَد الله على جهل، أو تؤدى المناسك على غير هدى، وذلك أمرٌ ينبغي أن يُعنَى به الحجاج أيما عناية.

سادسًا: التماس الرفيق الصالح:

نهى الإسلام أبناءه عن الوحدة في السفر، وحثهم على الترافق واتخاذ الصحبة؛ لما في ذلك من تلبية لاحتياج النفس إلى الاجتماع، ولما يشتمل عليه ذلك من أنس وتكامل وعون ووقاية وتبادل خدمة، فقال صلى الله عليه وسلم: «الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب». (صحيح سنن الترمذي: ١٦٧٤).

وفي الوقت نفسه جاءت النصوص بالحث على حسن اختيار الرفيق، ومن ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ؛ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً» (مسلم: ٢٦٢٨).

فاستعن بالله تعالى واسأله أن يوفقك لحسن الرفقة وطيب العشرة، والانتفاع بالصحبة، فينبغي للحاج أن يصاحب رفيقا يُذكره إذا نسي، ويقويه إذا عجز، ويصبره إذا يئس، ويشجعه إذا جبن، يأخذ بيده للخير ويدله عليه، يحب له الخير كما يحبه لنفسه، ينصح له في حله وترحاله.

سابعًا: التحلي بمكارم الأخلاق وحسن العشرة:

فإن مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين، بها ترفع الدرجات، وتضاعف الحسنات، وهي غايةٌ من بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». (الصحيحة رقم: ٤٥).

فالمسلم مطالب بالتحلي بحسن الخلق في كل زمان ومكان وكل وقت وحين، ولا سيما في هذا الموطن، فالسفر غالبًا يعري الإنسان من الأقنعة التي كانت تحجب طبيعته، وما سُمي السفر سفرًا إلا لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال.

فكن أخي الحاج حَسَن الخلق مع إخوانك؛ فإن حسن الخلق عنوان كمال الإيمان؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا». (صحيح الجامع رقم: ١٢٣٢).

ومن ذلك استعمال مفاتيح القلب والولوج من بوابات النفس: من تبسم الوجه وطلاقته، وكلمة طيبة، وحسن استماع، ومشاركة وجدانية، والحفاظ على المشاعر والحقوق والممتلكات، وإحسان الظن، والتماس العذر، وتذكر الحسنات، وتغليب التسامح والرحمة على المحاققة، وترك الملامة، وتجاوز الإساءة، والتغافل عن الخطأ، وسرعة الاعتذار عند الزلل، وحسبك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من كظم غيظًا وهو قادرٌ على أن يُنفذه، دعاه الله على رءوس الخلائق، حتى يخيره من الحور العين يزوجه منها ما شاء».

ومن أجمل الأخلاق الاجتماعية: الرفق، ولقد حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرفق فقال: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ». (مسلم: ٢٥٩٤).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه». (صحيح أبي داود: ٤٠٢٣).

وقد دفع النبيُّ صلى الله عليه وسلم يوم عرفة، فسمع وراءه زجرًا شديدًا، وضربًا للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: «أيها الناس، عليكم بالسكينة، فإن البر ليس بالإيضاع». (البخاري: ١٦٧١).

ومن مكارم الأخلاق حسن معاشرة الزوجة، فمن كان معه أهله في الحج فليحسن إلى أهله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً متأسيًا بالنبي صلى الله عليه وسلم، فحين حاضت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ودخل عليها فوجدها تبكي، سلاها وعزاها، قائلاً:

«إن هذا أمر كتبه الله على بنات آدم». وحين ألحت أن تأتي بعمرة بعد الحج قال: «اذهب بها يا عبد الرحمن فأعمرها من التنعيم». وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً سهلاً، إذا هويت الشيء تابعها عليه. (مسلم: ١٢١١، ١٢١٣).

ثامنًا: تجنب الرفث والفسوق والجدال:

قال الله تعالى: «ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ» (البقرة:١٩٧). يعني أنه من أوجب الحج على نفسه خلال هذه الشهور بأن تلبس به، وألزمه نفسه فليحترم ما التزمه من شعائر الله، وليصنه من الرفث الذي هو مقاربة النساء ما دام محرمًا، ومن الفسوق الذي هو الخروج عن حدود الشرع بفعل أي محظور يخل بإحرامه، ومن الجدال. قال عطاء رحمه الله: «الجدال: أن تجادل صاحبك حتى تغضبه ويغضبك».

تاسعًا: الحذر كل الحذر من مقارفة المعاصي:

قال الله تعالى: «وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» (الحج:٢٥)، فإذا كان ذلك لمجرد الإرادة. فكيف بمن يُريد ويفعل؟ إن في هذا التعبير البليغ زيادة في التحذير، ومبالغة في التوكيد، ولقد ضرب السلف الصالح أروع الأمثلة في الأدب مع حرم الله عز وجل، يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «كنا نعد: لا والله، وبلى والله، من الإلحاد في الحرم، ويروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: «لأن أخطئ سبعين خطيئة بـ «رُكبة» أحبُّ إلي من أخطئ خطيئة واحدة في الحرم». (المصنف لعبد الرزاق: ٢٨/٥). ومعنى «ركبة اسم موضع بالحجاز بين غمرة وذات عرق».

عاشرًا: استثمار الوقت في الحج:

الحج أيام معدودة، وسويعات محدودة، ينقضي بانقضائها، ويستفاد منه بمقدار استثمارها، فمن صدق فيها ربَّه فنفر من المعاصي والمنكرات وجدَّ في الطاعات، واستكثر من الخيرات بانيًا عمله على إخلاص واتباع، فحري به أن ينال عالي الدرجات، ويخرج من الموسم بحج مبرور وسعي مشكور وتجارة لن تبور، بإذن الله، وقد وردت في ثنايا آيات الحج إشارات تحث العبد على الاستكثار من الطاعات وقت أداء النسك، ومن ذلك: قوله عز وجل: «وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ» (البقرة:١٩٧).

ولعل من أهم الطاعات التي ينبغي أن يستكثر منها العبد ويشغل بها وقته أثناء النسك:

١- أعمال القلوب: من إخلاص، ومحبة، وتوكل، وخوف، ورجاء، وتعظيم، وخضوع، وإظهار افتقار، وصدق في الطلب والمسألة، التوبة والإنابة، والصبر، والرضا والطمأنينة.. ونحو ذلك، فهذا من أهم ما ينبغي أن ينشغل به العبد في حجه؛ إذ مدار الإسلام على هذه الأمور.

٢- قراءة القرآن والذكر والاستغفار، وقد أمر الله الحجيج بالذكر والاستغفار في ثنايا آيات الحج، وقال صلى الله عليه وسلم حاثا على التلبية والذكر: «ما أهل مُهل ولا كبر مكبر إلا بُشر. قيل بالجنة؟ قال: نعم». (الصحيحة: ١٦٢١).

٣- بذل المعروف:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ". (مسلم: ٢٦٢٦). وقوله صلى الله عليه وسلم: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس». (صحيح الجامع: ١٦٧).

٤- استشعار حقيقة الحج:

إدراك العبد حقيقة الحج، والحكم والأسرار التي شرعت الشعائر من أجلها، يهيئ العبد ليكون حجه مبرورًا، إذ القيام بذلك بمنزلة الخشوع في الصلاة، فمن كان فيها أكثر خشوعًا كانت صلاته أكثر قبولاً، وكذلك الحج، كلما استوعب المرء حقيقة الحج، وروحه، والحكم والغايات التي شرع من أجلها، واتخذ ذلك وسيلة لتصحيح عقيدته وسلوكه، كلما كان حجه أكثر قبولاً وأعظم أجرًا، هكذا يجب أن يعي الحاج هذه الفريضة العظيمة، وأن يلتزموا بهذه الوصايا في قلوبهم، ويتمثلوها واقعًا عمليًا بأفعالهم وسلوكهم، «ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ» (الحج:٣٠).

فتعظيم شعائر الله يكون بإجلالها بالقلب ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، أن يكتب لنا ولكل متشوق حج بيته الحرام، وأن يتقبل من الحجاج، وأن يجعل حجهم مبرورًا، وسعيهم مشكورًا، وذنبهم مغفورًا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.



معالم على طريق الحج

الحمد لله، وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده؛ نبينا محمد عبد الله ورسوله الأمين. معلم العالمين وإمام المتقين، القائل: "خذوا عني مناسككم" وبعد:

فإن الحج مدرسة إيمانية، وصلة تربوية، يزداد به المرء إيمانا، ويزداد إحسانا وإيقانا، يشعر فيه بالراحة والطمأنينة والأنس، مع وجود المشقة والعناء والتعب، لاسيما مع أعداد الحجاج الهائلة من جميع أنحاء المعمورة، يؤدي المسلم فيه هذه الشعائر بروح عالية، ونفس مطمئنة، وحاله تقول: حبذا لو طالت أيام الحج.

إعداد/ فتحي أمين عثمان

في أيام الحج صور وعظات، وعبر وآيات، واكتساب علم وخبرات، وحصول منافع ودفع سيئات، ودوام ذكر وعبرات، قال تعالى: « لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ » (الحج: ٢٨).

هذه المدرسة الإيمانية لا بد أن تؤدى على وفق ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال: " لتأخذوا عني مناسككم" حتى تؤتي ثمارها، وحتى يتحقق موعود الله فيها بمغفرة الذنوب والسيئات.

فإن في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدعوة والعبادات تتمثل في معالم يجب أخذها أسوة في رحلة العروج إلى الله، والإيمان به، ولهذه المعالم معاني روحية عالية والله تبارك وتعالى يقول: « وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ » (العنكبوت:٤٣).

فمثلاً في رحلة الإسراء والمعراج لماذا يصلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنبياء ولم يصل بهم في البيت الحرام؟

ذلك لأن معنى أن يصلي الأنبياء جميعاً خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنهم جميعاً قد عهدوا بأمر الدعوة

إلى الله إليه وإلى أمته من بعده.

فأصبحت الأمة الإسلامية هي أمة البلاغ والشهادة ؛ وأصبحت الأمم الأخرى أمم الاستجابة.

كما أن ذلك المظهر الإيماني التعبدي في بيت المقدس والذي تمثل بإمامة رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم يدل على أن ميراث إبراهيم في المناسك والمقدسات قد آل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته «وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» (البقرة: ١٢٥).

بينما نرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي في مكة كان يعبر عن أن عهدة صيانة وحفظ ورعاية مقدسات إبراهيم عليه السلام مسئوليته ومسئولية أمته من بعده في حفظها إلى قيام الساعة.

الرسول صلى الله عليه وسلم كان يضع الكعبة وبيت المقدس بين يديه ؛ مما يدل على وحدة الدين ؛ لا وحدة الأديان كما يقول الصوفية، وبينهما فرق كبير.

ثم نرى بعد ذلك رسول الله وقد اشتاق أن تكون الكعبة المشرفة بيت الله الحرام قبلته. ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو النبي الذي يجده أهل الكتاب عندهم وعلامته يصلي إلى قبلتين.

كما كان الإسلام أعظم دين والقرآن أصح كتاب، وقد انتهت مهمة البلاغ عن الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته، فقد استوجب ذلك أن تكون قبلته أعظم قبلة يتجه إليها الناس، وأمته خير أمة أخرجت للناس، وهي الأمة الشاهدة على الأمم.

> الحج فريضة على كل مسلم، حجةً في الدهر، وقد حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم ما يحل لهم في حجتهم وعمرتهم وما يحرم عليهم.

وكان من حكمة التشريع بعد هذه الفضائل التي عهد بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البلاغ للشعائر والمناسك وأن يكون حجة للناس جميعاً في أول بيت وضع للناس جميعاً، فالحج فريضةٌ على كل مسلم حجةً في الدهر، وقدَ حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم ما يحل لهم في حجتهم وعمرتهم وما يحرم عليهم.

فتجرد رسول الله وأمر بالتجريد، ونهى عن لبس القمص والسراويلات والبرنس والعمائم والخفاف والقلانس.

ولا تنتقب المرأة ولا تلبس القفازين، وما سوى ذلك من لبس الثياب فهو حلالٌ لهن.

وأحب ألوان الثياب إلى العلماء في الإحرام البياض من غير تحريم لما سواها.

ويروى أن عمر بن الخطاب رأى على طلحة بن عبيد الله ثوبين مصبوغين بمشق، فقال: يا معشر هؤلاء النفر، إنكم أئمةٌ يقتدي بكم الناس، يريد المهاجرين الأولين، ولا تلبسوا ثوباً مصبوغاً في الإحرام.

وهنا نحب أن نشير إلى ما كتبه الشيخ خليل هراس حيث يقول: " ومن العبادات البدنية: الحج إلى بيت الله الحرام، وهو آخر فريضة فرضت في الإسلام. ويزيد على الصلاة والصوم: أن فيه عنصر المال إلى جانب ما يشتمل عليه من الأعمال والأقوال.

والحج رحلة إلى الله تعالى يقوم بها-

المسلم لينال بها إذا هو أداها على وجهها- طهارة لنفسه من أوزارها حتى يرجع كيوم ولدته أمه، ويفوز على ذلك برضوان الله وجنته. فالحج المبرور" ليس له جزاء إلا الجنة"(صحيح البخاري: ١٦٨٣، و مسلم: ١٣٤٩). كما جاء في الحديث.

وكثير من الناس لاسيما أدعياء الثقافة والعلوم العصرية لأنهم لا يفقهون الحكمة من هذه الفريضة، تراهم يثيرون الشكوك حول كثير من الأعمال التي جعلها الله مناسك للحج، كاستلام الحجر الأسود وتقبيله، ورمي الجمار ونحو ذلك ويتساءلون عن الحكمة فيها.

إن واجب المسلم أن يذعن ويمتثل كل ما أمر به علم الحكمة في ذلك أم لم يعلمها. فإن الاعتراض على الأمر إبليسية قديمة أعاذنا الله منها.

وإذا حاول أحد إقناعهم بما تعكسه هذه الأعمال المختلفة مع ما يلابسها من الأدعية الضارعة والأذكار الخاشعة على النفس من انطباعات وأحاسيس تزيد معنى الإسلام فيها صقلاً وجلاء وتشعرها بمعاني العبودية الكاملة الخائفة الراجية، لم يجد الكلام مساغاً لدى هذه القلوب الشاردة الغافلة. ولكننا مع ذلك سنحاول جهد الطاقة أن نقرب إليهم هذه المعاني، وإن كنا لا نرى ذلك واجباً، فإن واجب المسلم أن يذعن ويمتثل كل ما أمر به علم الحكمة في ذلك أم لم يعلمها. فإن الاعتراض على الأمر إبليسية قديمة أعاذنا الله منها.

فالحاج يخرج من بلده بعد أن يكون قد رد الحقوق والودائع إلى أهلها، وتحلل من كل مظلمة ظلمها، تاركاً وطناً يحبه ومسكناً يرضاه وأهلاً وأولاداً يخاف عليهم وتجارة يخشى كسادها، متحملاً مشقة السفر وألم الفراق ووحشة الاغتراب، كل ذلك في سبيل الاستجابة لنداء ربه حيث دعاه لزيارة بيته الذي اختصه لنفسه وجعله أول بيت وضع لعبادته في أرضه.

وما هو إلا أن يبلغ الميقات حتى يتأهب للقدوم على مولاه، فيتجرد من ثياب زينته ويتلفف بثياب العبودية المحضة إزاراً ورداء، بعد أن يكون قد اغتسل وتطيب. ثم يهل بعد الصلاة بنسكه من حج أو عمرة، قارناً ذلك بالتلبية: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، هذه الكلمات التي تفيض بمعاني التوحيد والإخلاص، وتعلن إقبال العبد على ربه وإسراعه في طاعته، وتخصه وحده سبحانه بأن له الحمد كله والنعمة والملك، وتنفي عنه الشريك في ذلك كله.

ثم هو بعد ذلك يلتزم في تصرفاته كلها ما التزمه العبد بحضرة سيده، فلا يصدر منه عدوان أصلاً، بل كل شأنه سلم وأمان فلا يقتل حيواناً حتى ولو كان من هوام الجسم ولا ينفر صيداً ولا ينتف شعراً ولا يغطي رأساً، متجنباً الرفث والفسوق والمراء والجدال إلى غير ذلك مما يخل بإحرامه.

حتى يقدم مكة بلد الله الحرام فيبادر إلى أداء مناسك عمرته التي هي الطواف بالكعبة المشرفة والسعي بين الصفا والمروة ذاكراً في طوافه وسعيه أنه في جوار ربه الكريم الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، فيدعوه في ذلة وضراعة أن يحط عنه أوزاره وخطاياه.

ومن عجب أن كل ملوك الدنيا ورؤسائها يتخذون لهم قصوراً يؤمها الناس من رعيتهم وغيرهم في المناسبات المختلفة إعراباً عن ولائهم لهم، حتى ولو لم يكونوا هم موجودين فيها. فماذا ينكر إذاً من وجود بيت الله في أرضه يؤمه عباده الذين هم عباده إظهاراً لذل العبودية، وقياماً بواجب الطاعة، وتخففاً من أثقال الذنوب وطلباً للفضل والرحمة من الكريم المنان.

> ومن عجب أن كل ملوك الدنيا ورؤسائها يتخذون لهم قصوراً يؤمها الناس من رعيتهم وغيرهم في المناسبات المختلفة إعراباً عن ولائهم لهم، فماذا ينكر إذاً من وجود بيت الله في أرضه يؤمه عباده.

وهكذا كل أعمال الحج من السعي والوقوف بعرفة والمزدلفة ورمي الجمار والذبح، لا تخلو كلها من معاني التعبد المحض والتزلف للسيد المالك جل شأنه، كما تتزلف الرعايا ملوكهم، ولله المثل الأعلى.

أما تقبيل الحجر الأسود فإنه لا يخطر ببال مسلم أبداً وهو يقبّله أنه ينفع أو يضر، كما صح عن الفاروق رضي الله عنه أنه قال بعد أن قبّله (إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك. ما قبلتك)(البخاري (١٥٩٧) و مسلم (١٢٧٠).

فنحن نقبله كما قال عمر اقتداء برسولنا صلى الله عليه وسلم وهو عليه السلام لم يفعل ذلك من عند نفسه، بل بوحي من ربه. فماذا إذاً في تقبيل حجر تعبدنا الله بتقبيله فنحن نقبله عبادة لله لا عبادة للحجر.

وأما رمي الجمار فإن المسلم يذكر عند الرمي أنه يرجم الشيطان الذي كان سبباً في صرفه عن طاعة ربه، والذي يتسلط عليه بإغوائه ووسوسته ليجعله من أصحاب السعير.

فكأن المسلم حين يرمي هذه الحصيات مكبراً عند كل حصاة يريد بذلك أن يعلم مخالفته لذلك الشيطان الرجيم، حتى لا نصير من جنده الخاسرين. ويذكر عندئذ ما كان من أمر إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام حين عرض لهما الشيطان يريد قتلهما عن تنفيذ أمر الله في ذبح إسماعيل فرجماه، فارتد خاسئاً مدحوراً.

فما أحرى الناس أن يتدبروا هذه المعاني السامية حين قيامهم بمناسك حجهم وعمرتهم، حتى يشعروا فيها بطعم العبودية ولا يرين على صدورهم شيء من الشك في حكمتها.

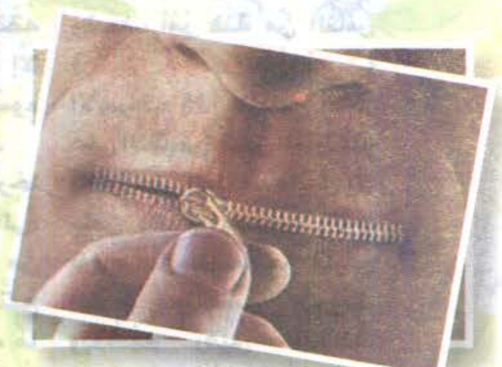
وما أحراهم كذلك أن يذكروا ما في الحج وراء هذه الفوائد الروحية الفردية من فوائد اجتماعية عظيمة تتمثل في ذلك اللقاء والتعارف بين المسلمين الوافدين من شتى أقطار الأرض تظلهم جميعاً راية التوحيد، وتؤلف بينهم أخوة الإسلام، حيث يتبادلون المنافع ويتشاورون فيما يهمهم من عظائم الأمور، مصداق قول الله تعالى لخليله إبراهيم: « وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ » (الحج: ٢٧-٢٨)

(مجلة الهدي النبوي العدد الأول مجلد سنة (١٣٨١هـ)."

والحمد لله رب العالمين.

صَوْنُ اللِّسَانِ عَنِ الكَلامِ فِي العُلَمَاءِ وَالأَعْيَانِ

إعداد/ د. عماد عيسى
المفتش بوزارة الأوقاف



الحمدُ للهِ والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن ولاه، وبعدُ:

قيمةُ العلماء:

فإن الله جعلَ العلماءَ للأمَّة حصْنًا حَصينًا، ورُكنًا رَكينًا، وسراجًا وهَّاجًا لا ينطفئُ، وقمرًا منيرًا يُهْتدَى به في ظُلُمات الفتَن، ولعمرِ الحقِّ هذه منزلةٌ هم أحقُّ بها وأهلُها ؛ فهُمْ يَحْمُونَ الأُمَّةَ مِنَ الجهَالَة المُردية، والضَّلالة المتردِّية، وكم مِنْ معضلاتٍ ومشكلاتٍ نَزلَتْ بالأمَّة فكَّ اللهُ بهم رُمُوزَها، حتَّى أسفرَ الحقُّ فيها عن محْضه، وأبْدَى الليلُ عن صُبْحه، فكانُوا حقًّا هُم المَلْجأ إذا نَزلَت المُعضلةُ.

قَالَ أَحْمَدُ بنُ صَالحٍ: أعضَلت الرَّشيدَ مَسْأَلَةٌ، فجَمعَ لَهَا فُقَهَاءَ الأَرْضِ، حَتَّى أَشْخَصَ اللَّيْثَ، فأَخرجَهُ منْهَا(السير ١٥٩/٨).

وأمر الله بالرُّجوع إليْهم فقال: (فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧ وقال أيضاً (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ) النساء: ٨٣ فالعلماء أمانٌ للأمَّة، مَنْ حفظَهُم سَادَ، ومَنْ ضيَّعهُم سَقطَ وبَادَ.

حرمة أهل العلم في القديم

لقد كانَ العلماءُ قديمًا أولي حُرمة، وذوي مهابة وجلالة في النُّفوس، وإليكَ من ذلك صوراً مُضيئةً مُشرقةً ومُشرِّفةً:

عَنْ أَبِي سَلَمَةَ:أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَامَ إِلَى زَيْدِ بنِ ثَابِتٍ، فَأَخَذَ لَهُ بِرِكَابِهِ، فَقَالَ: تَنَحَّ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُوْلِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-فَقَالَ: إِنَّا هَكَذَا نَفْعَلُ بِعُلَمَائِنَا وَكُبَرَائِنَا (السير ٤٣٧/٢).

وقَالَ مُحَمَّدُ بنُ سِيْرِيْنَ: جَلَسْتُ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبِي لَيْلَى، وَأَصْحَابُهُ يُعَظِّمُوْنَهُ، كَأَنَّهُ أَمِيْرٌ (السير ٢٦٣/٤).

وكما كانَ هذا الإجْلالُ في أصْحابهم الذينَ يُقدِّرونَ علْمَهم، كذلكَ كان أيْضاً في عامَّة الناس وسَوادهم الأعظم، سُنَّةً قد خلَتْ من قبلُ.

وَدُونكَ في هَذَا المعْنَى مواقفُ مُورقةٌ غير مُؤرِّقة:

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ: مَا رَأَيْتُ أَحداً أَعْظَمَ قَدْراً مِنْ أَبِي مُسْهِرٍ، كُنْتُ أَرَاهُ إِذَا خرَجَ إِلَى المَسْجِدِ، اصْطَفَّ النَّاسُ يُسَلِّمُوْنَ عَلَيْهِ، وَيُقَبِّلُوْنَ يَدَه (السير ٢٣٥/١٠)

وَقَالَ أبوشِهَاب: رَأَيْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ انْقَطَعَ شِسْعُهُ فَخَلَعَ نَعْلَهُ الْأُخْرَى وَهُوَ يَطُوفُ، فَلَمَّا رَآهُ الْقَوْمُ خَلَعُوا نِعَالَهُمْ اهـ (الحلية ٢٨٠/٤)

وقال أَشْعَثُ بنُ شُعْبَةَ المَصِّيْصِيُّ قَدِمَ الرَّشِيْدُ الرَّقَّةَ،

فَانْجَفَلَ النَّاسُ خَلْفَ ابْنِ المُبَارَك، وَتقطَّعَت النِّعَالُ، وَارتَفَعَت الغَبَرَةُ، فَأَشرفَتْ أُمُّ وَلَد لأمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ مِنْ بُرْج مِنْ قَصْرِ الخَشَب، فَقَالَتْ: مَا هَذَا؟قَالُوا: عَالِمٌ مِنْ أَهْلِ خُرَاسَانَ قَدمَ.

قَالَتْ: هَذَا -وَاللهِ- المُلْكُ، لاَ مُلْكَ هَارُوْنَ الَّذِي لاَ يَجْمَعُ النَّاسَ إِلاَّ بِشُرَط وَأَعْوَان (السير ٨/٣٨٤).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ يَعْقُوْبَ بن الأَخْرَم: سَمِعْتُ أَصْحَابَنَا يَقُوْلُوْنَ: لَمَّا قَدِمَ البُخَارِيُّ نَيْسَابُوْرَ اسْتَقبلَهُ أَرْبَعَةُ آلاَف رَجُل رُكْبَاناً عَلَى الخيل، سِوَى مَنْ رَكِبَ بغلاً أَوْ حِمَاراً وَسِوَى الرَّجَّالَة (السير ١٢/٤٣٧).

بَلْ كانَ الخلفاءُ والسلاطينُ يُجلُّونهم ويُنزلُونهم المنازلَ العَاليَة، وَهاكَ طرفاً من ذلكَ منيراً لا مُبيراً:

قَالَ أَبو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيْر: صَبَّ عَلَى يَدَيَّ بَعْدَ الأَكْلِ شَخْصٌ لاَ أَعرِفُهُ.

فَقَالَ الرَّشِيْدُ: تَدْرِي مَنْ يَصُبُّ عَلَيْكَ؟قُلْتُ: لاَ، قَالَ: أَنَا؛ إِجْلاَلاً لِلْعِلْمِ (السير ٩/٢٨٨).

وقال الذهبي: كَانَ (أي السُّلطانُ الأَشْرَفُ) يُبَالغ فِي تَعْظِيْم الشَّيْخ الفَقيْه (يَعْنِي: اليُوْنِيْنِي)، تَوضَأَ الفَقِيْهُ يَوْماً، فَوَثَبَ الأَشْرَف، وَحلَّ مِنْ تَخْفِيْفتِه، وَرمَاهَا عَلَى يَدَي الشَّيْخِ لِيُنَشِّفَ بِهَا، رَأَى ذَلِكَ شَيْخُنَا أَبُو الحُسَيْنِ، وَحكَاهُ لِي (السير ٢٢/١٢٧).

وهكذا جرت أمورُ الأمة على السَّداد في الغالب مع أهل العلم، فقدْ كانَ من الأمور التي لا تخالجها شكوك، ولا تمازجُها ظنُون، أنّ العلمَ يُذكرُ بالنَّباهة أصحابُه، ويُنعتُ بالرَّجاحة طلَّابُهُ، ويستحقُّ الحمدَ عند كل الفضلاء حاويه، ويستوجبُ الثناءَ عند جميع العقلاء واعيه ؛ لأنَّهم – لله درُّهمْ – أحيَوا المكارمَ، وابْتَنَوْا المفاخرَ ؛ فالغيرةُ عليهمْ منْ جميل المكارم، بَلْ هيَ أختُ الغَيْرةَ على المَحارم.

وبلغ الأمرُ بالمُصنِّفينَ ذكرُ توقيرهم في كتب الاعتقاد، وأصولِ الدِّيَانة.

قال الطحاوي: (وَعُلَمَاءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التَّابِعِينَ - أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْأَثَرِ، وَأَهْلِ الْفِقْهِ وَالنَّظَرِ - لَا يُذْكَرُونَ إِلَّا بِالْجَمِيلِ، وَمَنْ ذَكَرَهُمْ بِسُوءٍ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ السَّبِيلِ) اهـ.

وقَالَ ابنُ أبي العزّ شارحًا هذا الكلام: (قَالَ تَعَالَى: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ بَعْدَ مُوَالَاةِ اللهِ وَرَسُولِهِ مُوَالَاةُ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ، خُصُوصًا الَّذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللهُ بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ، يُهْدَى بِهِمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ. وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، إِذْ كُلُّ أُمَّةٍ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُلَمَاؤُهَا شِرَارُهَا، إِلَّا الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ عُلَمَاءَهُمْ خِيَارُهُمْ، فَإِنَّهُمْ خُلَفَاءُ الرَّسُولِ مِنْ أُمَّتِهِ، وَالْمُحْيُونَ لِمَا مَاتَ مِنْ سُنَّتِهِ، فَبِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ، وَبِهِ قَامُوا، وَبِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ، وَبِهِ نَطَقُوا) اهـ شرح الطحاوية ص: ٥٠٣.

حالُ النَّاس اليوم مع عُلمائهم:

كان العلماءُ أشجارَ الوقار، ومعادنَ الاختبار، وأهلَ الفهم والاختيار ؛ لأنَّهم أهلُ البصيرة والفراسة، وأصحابُ الدِّفاع عن دينهم، والقائمون عليه بالحراسة، ولم يزلْ أمْرُهمْ في عُلوٍّ وارتفاع حتَّى جَرتْ في الأمَّة وَقائعُ وأحداثٌ، وأمورٌ لم تَكُنْ في الحُسبانِ، وضَعُفَ أمْرُ فئة من النَّاس ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴾ الأعراف: ١١٩ فأصبحَ الأمرُ على النَّقيض، تُشنُّ الغارةُ تلوَ الغارة على العُلماء، فليسَ إلا طعنٌ وشتْمٌ، وعُدوانٌ ولوْمٌ، تُجاهَ أهلِ العلم، من قليلي الفَهْم، وناقصي المروءة، وبعضُهم رقيقُ الدِّيانة، (ويَحْسَبُونَ أنَّهمْ مُهْتَدُون) .

فساءَ ظنُّ الناس بالعلماء، وصارَ من لا يَفْقَهُ ولا يَنْقَهُ، يتكلمُ فيمَن انعقدتْ الكلمةُ على محبَّتهم لله ورَسُوله، وَصَارُوا في مَعْناهُم كلمة إجْمَاع ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

البقرة: ٩٣.
ومن أعاجيب هذه الأيام - وما أكثرها - أنه صار أهل السفه والعته يعيبون أهل العلم، ممن ذاعت شهرتهم، وظهر صيتهم، هداهم الله، وإلا فضت أفواههم (إنْ يقولون إلا كذبًا) (فذرهم وما يفترون).
وما اجترؤوا على خوض هذه المزالق، والدخول فيها، والتي هي في حقيقتها فرية بلا مرية، إلا لأن الشيطان قد استحوذ على بعض أهل زماننا بحيلة طليت بطلاء الدين، تمويهًا على الجهال والغافلين، وهي الكلام في أهل العلم وهي لعمر الحق محنة عسيرة، ظنوا أنها يسيرة (وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم).
فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون في عيبهم، فيلوون ألسنتهم بالكلام ليحسبوه من الحق وما هو من الحق، فلا يعمل عالم عملًا إلا عليه تغولوا، ولا يقول الفاضل كلامًا إلا فيه تقولوا، حتى صارت عقولهم أسيرة للشياطين، وتحرير العقول أساس لتحرير الجوارح والأبدان، ومحال أن يتحرر لسان يحمل قلبًا أسيرًا، و(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) الفجر: ١٤.

فلا ظفرت يمينك حين ترمي
وشلت منك حاملة البنان

(لسان العرب ٣/٢٠٨).

أصناف الطاعنين في العلماء:

الطاعنون في أهل العلم ليسوا سواء، فهم ما بين مخدوع ومخادع.
الصنف الأول: صنف مخدوع، مكر به بزيف الدعاوى، وزيغ الأقاويل، واستدرج حتى أوثق بحبال صيد، ووسائل كيد ؛ فلا يكاد هؤلاء القوم يستطيعون فكاكًا، اللهم إلا إذا أزالوا عن قلوب أقفالها، وهجروا قالة السوء، ومن يؤزونهم على الوقيعة أزًا، مع الندم على كل فائت، والعمل على استنارة البصائر، ومع هذا فلابد من طلب المعونة والتوفيق من الله تعالى، واستلهام الصواب منه سبحانه، ذلك لأن الله جل وعز قد جعل لكل شيئ سببًا، فأتبع سببًا.
ومفتاح ذلك كله رفع الشعار الرباني (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) هود: ٨٨.
وإن مما يشد عضد هؤلاء على الرجوع، العلم بشديد العقاب على هذه الطعون التي تنزف لها قلوب، وتسح بها عيون الدمع السخين.
فإذا علم مسرف القول في العلماء أن عليه من الله طليبًا، ومن أعين الخلق رقيبًا، ارعوى، وخاف سوء العاقبة في الدنيا والآخرة.

عقاب الدنيا:

أما في الدنيا فإن من الحقائق التي لا تمانع، والحجج التي لا تدافع: أن (من جر ذيول الناس جروا ذيله) ميزان الاعتدال ٤/٤١٠، فلا بد أن ينزل به ما أنزله بالناس، ومن حفر لأخيه قليبًا وقع فيه قريبًا (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) فاطر: ٤٣ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم) يونس: ٢٣.
قال الذهبي في ترجمة الحافظ أبي نعيم الأصبهاني: (صدوق، تكلم فيه بلا حجة، ولكن هذه عقوبة من الله لكلامه في ابن منده بهوى) الميزان ١/١١١.

دفاع الله عن أهل العلم:

وانظر إلى دفاع الله عن أهل العلم وخذ من ذلك العبرة.
قال بكر بن منير: بعث الأمير خالد بن أحمد الذهلي والي بخارى إلى محمد بن إسماعيل أن احمل إلي كتاب (الجامع) و (التاريخ) وغيرهما لأسمع منك.
فقال لرسوله: أنا لا أذل العلم، ولا أحمله إلى أبواب الناس، فإن كانت لك إلى شيء منه حاجة، فاحضر في مسجدي، أو في داري، وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان، فامنعني من المجلس، ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة، لأني لا أكتم العلم لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار) فكان سبب الوحشة بينهما هذا.
فاستعان الأمير بحريث بن أبي الورقاء وغيره، حتى تكلموا في مذهبه، ونفاه عن البلد، فدعا عليهم، فلم

يأت إلاَّ شهرٌ حتَّى وَرَدَ أَمْرُ الظَّاهريَّة، بأنْ يُنادَى على خالد في البلد، فنُوديَ عليه على أتان.
وأمَّا حُريثٌ، فإنَّه ابْتُليَ بأهْله، فرأى فيهَا ما يَجل عن الوَصْف.
وأمَّا فُلان، فابْتُليَ بأوْلاده، وأراهُ الله فيهمُ البلايا اهـ (سير أعلام النبلاء ١٢/٤٦٤ - ٤٦٥). بتصرف.
وشتَم رجلٌ فقيهَ المغرب، أباعبْد الله مُحمَّدَ بنَ إبْراهيم بن عَبْدُوس - الذي أقامَ أرْبعَ عشْرةَ سنَةً يُصلِّي الصُّبْحَ بوُضُوءِ العشاء، وكانَ على غايَة منَ التَّواضُع - فانظرْ في هذا السِّياق ماذا حاقَ بالرجل.
(قيلَ: أتاهُ رَجُلٌ، فقالَ: ما تقُولُ في الإيمان؟ قالَ: أنا مُؤْمنٌ؛ فقالَ: عنْدَ الله؟ قالَ: أمَّا عنْدَ الله فلا أقْطعُ لنفسي بذلكَ، لأنِّي لا أدْري بمَ يَخْتمُ لي. فبَصقَ الرَّجُلُ في وَجْهه، فعميَ منْ وَقْته الرَّجُل) السير١٣/٦٤
هذه عبرٌ من خبرٍ مَن عبرَ (فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ) القمر: ١٥ أم أنَّ أهلَ زماننا(سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ) (البقرة: ٦ - ٧).
وإذا كان هذا عقاب من بهتَ واحدًا من أهل العلم؛ فكيف بمَن بهتَ ثلةً منهُم، ومَنْ رَماهُم عَن قَوْسٍ واحدة؟ نعُوذُ بالله منْ غضَبه وعقابه وشرِّ عباده.
ثم إنَّ هذا العقابَ قد يَعُمُّ الأمَّةَ لاسيَّما إذا دبَّ إليها داءُ الأمم وحالقةُ الدِّين: البغضاءُ كما قال تعالى: (وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) الأنفال: ٢٥
إنَّ الأمةَ التي تجارتْ بها الأهواءُ فقطعتْ أوْصالَها، وسفَّهتْ حُكماءَها، وشتمتْ عُلماءَها أنَّى تُفْلحُ؟!

عقابُ الآخرة:

وأمَّا عقابُ الآخرة فيكفي صاحبَهُ أنْ تَضيعَ عليْه حَسناتُهُ بردِّ المَظالم إلى أهلها يومَ التَّغابن، وهلْ أتاكَ خبرُ (المُفلس منْ أمَّتي)؟
إنَّهُ نذيرٌ - واللَّه - فلا تَتَماروْا بالنُّذُر، وإنَّها والله القاصمةُ بلا عاصمَة، فهلْ من متدبِّر أمْ على قُلوبٍ أقفالُها؟!
الصنفُ الثاني: المخادعونَ للَّه ورسُوله، والغاشُّونَ لأمَّتهم ودينهم، وهؤلاء قومٌ وجبَ التَّحذيرُ منْهُم.
فهؤلاءِ القومُ لا يكادون يَفْقهونَ إلا انتقاصَ دينهم، وعَيْبَ أهله خاصَّةَ العُلماء، الذين سارَتْ بفوائدهم الرُّكبَانُ في الأمْصار، وطارتْ علومُهُم كلَّ مَطار في البُلدان والأقْطار.
وهــــؤلاء المشـــبوهـــونَ لا يُحسنونَ إلا قَرْضَ الأعْراض، والتَّمَضْمُض بالاعْتراض؛ فيُوقدُونَ نيرانَ الفتَن، لهُمْ أشْبهُ بمنافقي المدينة الذين ما تركُوا فضيلة للمسلمين إلا دفَنُوها، ولا وجدُوا غميزة إلا أذاعُوها (ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ) النساء: ١٤١ فأمثالُ هــؤلاء لا نــزالُ نطَّلعُ على خائنة منْهم.
وهؤلاء ليْس في قلوبهم واعظُ الله الذي في قلب كل مُسلم، فلا يَصْلحُ معهم إلا دفْعُ باطلهم، وكبْتُ تنمُّرهم، وصدُّ هذا الزحف المهُول، وردُّ كل متمرِّد عن صرح الإسْلام المُمرَّد (فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) (الأنفال: ٥٧)، و(إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) (محمد: ٧).

علاج هذه الآفة:

وهذا يكونُ بتَرْك الدَّوافع إليْها، واجْتنَاب الحَوامل عليْها، منَ الحسَد، والجدَل، وضيق العطَن والأفُق، والاجْتراء على أهل العلْم الذي يستولد التَّجنِّي عليْهم والافْتراء، ومُجالسَة مرضى القُلوب، وحُمَّى الأرْواح الذينَ لا يُنالُ منهم إلا حصُولُ العَار، ولحُوقُ الشَّنار، وضيقُ الدِّيار، وغلاءُ الأسْعار، فاللَّهُمَّ إنَّا نشْكو إليكَ هذا الغُثاء.
والى ذكر التفصيل نلتقي في حلقة أخرى.
والحمد لله رب العالمين.

ورحل شيخ وزراء الخارجية العرب «سعود الفيصل»

سعود الفيصل الذي فقدته الأمة العربية والإسلامية كان أبوه فيصل وجده عبد العزيز وجدته من آل الشيخ، وبهذا يكون سفير ابن ملك وجده في العالمين إمامًا.

فهو بهذا ثمرة من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، يأتي خيرها للناس في كل زمان ومكان، فلا غرو أن كان سعود الفيصل كما قال عنه الملوك والرؤساء والأمراء والهيئات الدبلوماسية والمؤسسات الدولية الإسلامية وغير الإسلامية وعلى رأسها الأزهر الشريف حيث نعى الأمير فيصل في بيان له قائلاً: «إن التاريخ سيسطر بحروف من نور مواقفه التاريخية حيال قضايا أمتيه العربية والإسلامية.

وهذا القول ليس بجديد على آل سعود وآل الشيخ فيذكر التاريخ للملك عبد العزيز وصيته لأبنائه بمصر وأهلها. ويذكر له مواقفه في دعم ومساعدة مصر وأهلها هو وأبنائه من بعده.

وفيما يتعلق بالملك فيصل فإن موقفه مع مصر في حرب ١٩٧٣م ودعمه في مؤتمر الخرطوم بعد النكسة لا ينكره مصري ولا عربي، فقد كان موقفه سببًا في عزة العرب وغناهم؛ حيث إن البترول أصبح مصدر للثروة لارتفاع الأسعار.

أما فيما يتعلق بتشجيعه لأهل العلم والفضل، فقد حدث أن الملك فيصل بعد أن تولى ملك السعودية، ذهبت الوفود تهنئه، وكان من بينها رجل اسمه رشاد الشافعي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر، ودخل مع الناس ثم وقف مخاطبًا الملك فيصل قائلاً: يا جلالة الملك نحن نبايعك لا على أنك ملك للسعودية وخادم الحرمين، ولكن لأنك إمام الموحدين في العالم الإسلامي، ذلك أن الشيخ حامد كان دائمًا يذكر الملك عبد العزيز بأنه الإمام العادل، ولا يقول عنه ملك.

كما أن الأمير نايف بن عبد العزيز والد ولي العهد محمد بن نايف زار أنصار السنة وهو صغير، وكان يقول لكل دولة سفير سياسي واحد وللمملكة سفيران أحدهما سياسي والآخر شرعي؛ وأما الشرعي فتمثله جماعة أنصار السنة المحمدية.

وأما العلاقة العلمية بين أنصار السنة وبين أجداد سعود الفيصل من آل الشيخ فكانت تتمثل في خال أبيه الإمام محمد بن إبراهيم آل الشيخ سماحة الشيخ مفتي السعودية سابقًا. من المودة والتعاون العلمي بين الشيخ محمد بن إبراهيم والشيخ محمد حامد الفقي في تحقيق الكتب وتخريجها وطبعها وتوزيعها على العالم الإسلامي والعربي والإفريقي.

وقد ظلت تلك العلاقة بين أبناء المعاهد العلمية والجامعات الإسلامية التي ساهم فيها كثير من علماء جماعة أنصار السنة المحمدية وعلى رأسهم الشيخ حامد الفقي الذي كان له سبق إصدار مجلة الإصلاح عام ١٩٢٨م في مكة بتوجيهات من الإمام العادل عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل.

وكذلك الشيخ عبد الرحمن الوكيل رئيس قسم الدراسات العليا في العقيدة بجامعة أم القرى، وكذلك الشيخ خليل هراس رئيس قسم العقيدة والشيخ عبد الفتاح سلامة رئيس قسم التفسير والشيخ عبد الرزاق عفيفي نائب رئيس لجنة الفتوى والبحوث العلمية والإفتاء، وكان لهم تلاميذ في المملكة والعالم الإسلامي عددهم لا يمكن حصره.

هذا وتنعي جماعة أنصار السنة المحمدية سعود الفيصل على أنه أحد رجالات الأمة العربية والإسلامية ونحسبه عند الله، وتحسبه مع النبيين والصديقين والصالحين وحسن أولئك رفيقا، وندعو الله أن يخلف الأمة الإسلامية خير، وأن يعوضهم فيه بأن يحشره مع أكابر أمته من الملوك والأمراء والصالحين والعلماء.

وفي الختام: نعزي المملكة والأمة الإسلامية بما عَزانا به مؤسس المملكة في وفاة أحد رجالنا الشيخ عبد الظاهر أبو السمح أمام الحرم المكي حيث أرسل جلالته يقول عند وفاة الرجل: «مصابكم مصابنا، أسكنه الله الجنة وألهمكم الصبر»، وليس أحسن من ذلك عزاء.

كتبه: فتحي أمين عثمان

واحة التوحيد

من نور كتاب الله

التأمل في خلق الإنسان

قال تعالى: " ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ". (السجدة: ٧، ٩)

من دلائل النبوة

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: "انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فرقتين؛ فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: اشهدوا". (صحيح البخاري).

من أقوال السلف

عن إبراهيم النخعي قال: "ما جعل الله في هذه الأهواء مثقال ذرة من خير، وما هي إلا زينة من الشيطان. وما الأمر إلا الأمر الأول. وقد جعل الله على الحق نورا يكشف به العلماء" (الاعتصام للشاطبي).

ومعنى: «وما الأمر إلا الأمر الأول» أي: الحق ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

من فضائل الصحابة بشهادات آل البيت

عن أبي إسماعيل النواء قال: سألت زيد بن علي عن أبي بكر وعمر فقال: "تولهما". قال: قلت كيف تقول فيمن تبرأ منهما؟ قال: تبرأ منه حتى يتوب". (السنة لعبد الله بن أحمد)

من أخلاق السلف

كانوا لا يتاجرون بدينهم

عن رجاء بن أبي سلمة قال: نُبئت أن ابن محيريز، دخل على رجل من البزازين (بائع الأقمشة) يشتري شيئًا، فقال له رجل: أتعرف هذا؟ هذا ابن محيريز (وكان معروفًا بالزهد والعبادة)، فقام فقال: «إنما جئنا لنشتري بدراهمنا ليس بديننا». (الزهد لأحمد).

من سير الخلفاء

عن الحسن البصري قال: "ما ورد علينا قط كتاب عمر بن عبد العزيز إلا بإحياء سُنة، أو إماتة بدعة، أو رد مظلمة. فهؤلاء هم الأئمة الذين هم لله في الأرض حجة". (الاستذكار لابن عبد البر).

من دعائه صلى الله عليه وسلم

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم، كان يقول: «اللهمَّ إنّي أعوذ بك من الفقر، والقلَّة، والذِّلَّة، وأعوذ بك من أن أظلم أو أُظلم». (سنن ابن ماجه).

إعداد/ علاء خضر

من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

من كفارات الذنوب

عن عثمان- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها. إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب. ما لم يؤت كبيرة. وذلك الدهر كله» (صحيح مسلم).

حكم ومواعظ

عن عليّ بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال: "للمرائي ثلاث علامات، يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص إذا ذُمّ". (إحياء علوم الدين للغزالي).

أحاديث باطلة لها آثار سيئة

"لما أسري بي؛ رأيت في ساق العرش مكتوبًا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله صفوتي من خلقي، أيدته بعليّ ونصرته"، حديث موضوع رواه ابن عساكر، وقال الألباني عن سلسلة الرواة فيه بأنه: موضوع مسلسل بالرافضة. (سلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني).

من معاني الأحاديث

طيش: في حديث الحساب «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» الطيش: الخفة. وطاش يطيش طيشا، فهو طائش. (النهاية لابن الأثير).

من نصائح السلف في الفوضى وأزمان الفتن

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إنها ستكونُ هناتٌ، وأمورٌ مشتبهاتٌ، فعليك بالتؤدة، فتكون تابعًا في الخير، خيرٌ من أن تكون رأسًا في الشر». (مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٣٤٣)، والإبانة لابن بطة (١٨٤).

خلق حسن فالزمه

عن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- قال: "وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع". (إحياء علوم الدين للغزالي).

خلق سيئ فاحذره

قال ابن مسعود- رضي الله عنه- "الشحّ: منع الزّكاة، وإدخال الحرام". (لسان العرب)

أثر السياق في فهم النص

الحلقة (٧٤)

تأثير قرائن السياق على الأحكام الفقهية

الطلاق المعلق

الحلقة الثالثة

إعداد/ متولي البراجيلي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

بعد أن استعرضنا آراء العلماء في مسألة الطلاق المعلق: من وقوعه بإطلاق، وعدم وقوعه بإطلاق، والتفصيل بين صورتيه، بين ما صورته أنه يستخدم كيمين، فهذا ألحق باليمين وتجري عليه أحكامه، وبين الطلاق بصفة وهو الذي يقصد به صاحبه وقوع الطلاق، فهذا طلاق واقع.

بقي لنا في مسألة الطلاق المعلق: النظر في القرائن المستخدمة والترجيح.

القرائن العامة:

أولا: الأحكام الشرعية لا تؤخذ من الأحاديث الضعيفة:

وعندنا في هذا المبحث - الطلاق المعلق - مجموعة من الأحاديث الضعيفة:

أ- حديث ابن مسعود رضي الله عنه في رجل قال لامرأته: إن فعلت كذا وكذا فهي طالق، فتفعله، قال: هي واحدة وهو أحق بها (الحديث ضعيف لانقطاع في سنده، بيناه بالتفصيل من قبل).

ب- حديث علي رضي الله عنه: أن رجلا تزوج امرأة وأراد سفرا فأخذه أهل امرأته فجعلها طالقا إن لم يبعث بنفقتها إلى شهر، فجاء الأجل ولم يبعث إليها بشيء، فلما قدم خاصموه إلى علي بن أبي طالب، فقال: اضطهدتموه حتى جعلها طالقا. فردها عليه. (الحديث من مراسيل الحسن البصري (ضعيف، وسبق تفصيل ذلك).

ج- حديث هشام بن عروة والذي فيه أن الزبير ضرب أسماء رضي الله عنهما ولما صاحت بابنها عبد الله فإن الزبير قال له: أمك طالق إن دخلت... فدخل... وطلقت أسماء رضي الله عنها (الحديث مداره على راو متروك الحديث وهو عبد الله بن محمد بن يحيى بن عروة بن الزبير المدني، كما سبق أن فصلنا ذلك).

د- أثر المرأة من آل ذي أصبح الذي فيه أنها حلفت أن مالها في سبيل الله وجاريتها حرة إن لم تفعل كذا وكذا... فأفتى ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم فقالا: أما الجارية فتعتق، وأما مالها فتتصدق بزكاة مالها.

قال ابن القيم: إن هذا الأثر معلول، وحديث ليلى بنت العجماء أشهر إسنادا وأصح منه.

أما ابن عباس فقد روي عنه خلاف ما ورد في هذا الأثر، فيمن حلف بصدقة ماله قال: يكفر عن يمينه.

وغاية هذا الأثر إن صح أن يكون عن ابن عمر روايتان ولم يختلف على عائشة وزينب وحفصة وأم سلمة (انظر إعلام الموقعين ٣/٥١).

هـ - أثر ابن عباس أنه كان يقول: من قال لامرأته أنت طالق إلى رأس السنة أن يطؤها ما بينه وبين رأس السنة. قال ابن حزم: لا يصح سندا لأن به كذابًا مشهورًا بالوضع. (انظر المحلى ٩/٤٨٣).

ثانيا: حجية قول الصحابي:

حديث ابن عمر رضي الله عنهما الذي فيه: طلق رجل امرأته البتة إن خرجت؛ فقال ابن عمر: إن خرجت فقد بتت منه، وإن لم تخرج فليس بشيء، فهذا الحديث علقه البخاري في الصحيح بصيغة الجزم، وهو من أقوى أدلة القائلين بوقوع الطلاق المعلق بجميع صوره، لأن ابن عمر رضي الله عنهما لم يسأل الرجل عن نيته، وهل هو يقصد الطلاق أم أنه يهدد فقط، ونحو ذلك.

وأجيب عن ذلك بأن هذا اجتهاد صحابي ولم يرفعه النبي صلى الله عليه وسلم، وأن هناك أقوالا أخرى للصحابة تخالف ما ذهب إليه ابن عمر، يقول ابن القيم: فإنهم صح عنهم الإفتاء بالوقوع في صور، وصح عنهم عدم الوقوع في صور والصواب ما أفتوا به في النوعين (يقصد التفرقة بين الطلاق المعلق بصفة، وما يجري مجرى اليمين) (إعلام الموقعين ٣/٤٨).

وقد جعل العلماء شروطا للعمل بقول الصحابي - وهذا مبحث طويل - ملخصها:

١- أن ينتشر قوله ويُعلم، ٢- ألا يخالفه أحد من الصحابة (وهذا يصير من قبيل الإجماع السكوتي) ٣- ألا يخالف نصًا. فإذا تحققت فيه هذه الشروط صار حجة عند الجمهور أما إذا خالفه صحابي آخر، فهنا لا يكون قوله حجة، وعلينا البحث عن الدليل في المسألة.

ثالثا: هل العمل بالعام واجب حتى يقوم دليل الخصوص؟

هذه المسألة من المسائل التي أطال الأصوليون الكلام فيها ونقل بعض الأصوليين الإجماع على عدم جواز العمل بالعام قبل البحث عن المخصص، وعارضه آخرون بنقل الإجماع على العمل بالعام حتى يطلع على المخصص ولكل فريق أدلته (انظر: التحبير شرح التحرير للمرداوي ت ٨٨٥هـ ٦/٢٨٣٩-٢٨٤٤).

وحاول البعض التفريق بين العلماء المجتهدين الذين أحاطوا بغالب نصوص الشريعة، وحصلوا من العلم ما يمكنهم من معرفة مراد الشارع، وسبروا غور النصوص فعرفوا العام والخاص، والناسخ والمنسوخ ومواطن الإجماع والخلاف، إلى غير ذلك فهؤلاء لا ينبغي الخلاف في أنهم إذا بلغتهم آية عامة أو حديث عام ولم يبلغهم المخصص على الرغم من تمرسهم بالعلم وسعة اطلاعهم على الأدلة أنهم يجب عليهم العمل بالعام، ولا يلزمهم التوقف إلى أن يبحثوا لاحتمال وجود المخصص.

أما القسم الثاني وهم العوام ومن يلحق بهم من المنتسبين إلى الفقه ولم يأخذوا من العلم ما يصل بهم إلى درجة الإحاطة بالشرع؛ فهؤلاء ليس لأحدهم أن يعمل بالعام إذا بلغه دون أن يسأل أهل العلم المجتهدين، ومراجعة أقوال العلماء ويبذل جهده في الوقوف على المسألة، وليس له أن يبادر إلى العمل أو الفتوى بالعام قبل مراجعة ما قاله أهل العلم. يقول ابن تيمية - بعد أن تكلم في هذه المسألة -: فإذا غلب على الظن انتفاء ما يعارضه (أي: يعارض العام) غلب على الظن مقتضاه (أي: العمل بالعام)، وهذه الغلبة (غلبة الظن) لا تحصل للمتأخرين في أكثر العمومات إلا بعد البحث عن المعارض. (انظر مجموع الفتاوى ٢٩/١٦٦-١٦٧).

فالذين نقل عنهم القول بالعمل بالعام قبل البحث عن المخصص من الأئمة كالشافعي وأحمد، يحمل ما ورد عنهم على أن المراد بذلك أهل الاجتهاد (انظر: التحبير شرح التحرير للمرداوي ت

٨٨٥هـ، ٦/٢٨٣٩-٢٨٤٤، البحر المحيط للزركشي ت ٧٩٤هـ ٤/٢٦٩-٣٠٠، أصول الفقه الذي لا يسع الفقيه جهله لعياض بن نامي السلمي صـ ٣٦٤-٣٦٦).

فالاحتجاج بعموم حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "المسلمون على شروطهم"، وأن المعلق للطلاق اشترط شرطا فيجب عليه التزامه يجاب عن ذلك بأن العموم هنا ليس على إطلاقه، بل له ضوابط ينبغي توافرها كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، فالملتزم لأمر عند شرط إنما يلزمه بشرطين، أحدهما: أن يكون الملتزم قربة، والثاني: أن يكون قصده التقرب إلى الله به، لا الحلف به، فلو التزم ما ليس بقربة كالتطليق والبيع والإجارة والأكل والشرب لم يلزمه. ولو التزم قربة كالصلاة والصيام والحج: على وجه الحلف بها لم يلزمه بل تجزيه كفارة يمين عند الصحابة وجمهور السلف وهو مذهب الشافعي وأحمد، وآخر الروايتين عن أبي حنيفة، وقول المحققين من أصحاب مالك.

وهنا الحالف بالطلاق وهو التزم وقوعه على وجه اليمين، وهو يكره وقوعه إذا وجد الشرط كما يكره وقوع الكفر إذا حلف به، وكما يكره وجوب تلك العبادات إذا حلف بها (مجموع الفتاوى ٣٣/٥٦-٥٧).

وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في قصة مكاتبة بريدة رضي الله عنه، وفيه: ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فما بال رجال يشترطون شروطا ليست في كتاب الله، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط... (متفق عليه).

رابعا: القياس:

وقد استخدمه القائلون بالتفرقة بين الطلاق المعلق بالصفة، والطلاق المعلق الذي يجري مجرى اليمين (كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ومن وافقهما)، فقال شيخ الإسلام: وهو الذي يدل عليه الكتاب والسنة والاعتبار: أن هذه يمين من أيمان المسلمين فيجري فيها ما يجري في أيمان المسلمين، وهو الكفارة عند الحنث... مستدلا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير ويكفر عن يمينه" (وهذا يتناول (أيمان) جميع المسلمين لفظا ومعنى، ولم يخصه نص ولا إجماع ولا قياس، بل الأدلة الشرعية تحقق عمومه) (انظر الفتاوى الكبرى ٣/٢٤١-٢٤٧).

واستخدموا قياس الأولى في قياس الطلاق المعلق على العتق المعلق في حديث ليلى ابنة العجماء - سبق بتمامه -: والذي حلفت فيه بعتق كل مملوك لها إن لم يطلق أبو رافع زوجته، فأفتاها جمع من الصحابة - رضي الله عنهم - بالتكفير عن يمينها، ولم يوجبوا عليها عتقا. قال ابن تيمية: "فإذا أفتوا في الحلف بالعتق الذي هو أحب إلى الله تعالى من الطلاق أنه لا يلزم الحالف، بل يجزئه كفارة يمين، فكيف يكون قولهم في الطلاق الذي هو أبغض الحلال إلى الله"؟! (مجموع الفتاوى ٣٣/٥٠).

(فائدة: حديث أبغض الحلال إلى الله الطلاق: حديث ضعيف، انظر تخريجه وطرقه في إرواء الغليل للشيخ الألباني ح ٢٠٤٠، ٧/١٠٦).

خامسًا: جمع طرق الحديث:

يؤدي إلى صحة الحكم على الحديث، فلو جمعت طرقا وتركت طرقا، فإن هذا قد يؤدي إلى مجانبة الصواب في الحكم على الحديث، وهذا فعله ابن القيم في "إعلام الموقعين"، ورد على العلة التي أعل بها الإمام أحمد حديث ليلى بنت العجماء، فقد أشار الإمام أحمد إلى تفرد التيمي بذكر العتق في الحديث وبيَّن ابن القيم عدم تفرد "التيمي".

سادسا: دعوى الإجماع:

الإجماع هو المصدر الثالث من مصادر التشريع بعد الكتاب والسنة، وقد اتفق أهل العلم على أنه حجة شرعية يجب

اتباعها والمصير إليها، ويحرم مخالفته. فإذا ثبت إجماع الأمة على حكم من الأحكام لم يكن لأحد أن يخرج عن إجماعهم، ولكن كثيرا من المسائل يظن البعض أن فيها إجماعًا، ولا يكون الأمر كذلك، بل يكون القول الآخر أرجح في الكتاب والسنة (مع ملاحظة أن اتفاق الأئمة الأربعة فقط لا يعد إجماعًا) (انظر دراسات في أصول الفقه / متولي البراجيلي صـ ٢١٩-٢٤٢).

لذا فلابد من التحقق من دعوى الإجماع قبل القول بها؛ لأننا كثيرا ما نقف على أقوال بنقل الإجماع، ثم يتبين عدم تحققها، وقد أنكر شيخ الإسلام ابن تيمية على بعض المتأخرين الذين يستسهلون في مسألة البحث العلمي بأن ينظروا إلى الإجماع، فإذا وجدوه لم يلتفتوا إلى غيره حتى وإن وجدوا نصًا خالفه اعتقدوا أنه منسوخ بنص لم يبلغهم. وخطأ هذا الرأي، واختار طريقة السلف من النظر والبحث عن الأدلة أولاً. يقول شيخ الإسلام: "فلما انتهت النوبة إلى المتأخرين ساروا عكس هذا السير، وقالوا: إذا نزلت النازلة بالمفتي أو الحاكم فعليه أن ينظر أولاً: هل فيها اختلاف أم لا؟ فإن لم يكن فيها اختلاف لم ينظر في كتاب ولا سنة، بل يفتي ويقضي فيها بالإجماع..".

وبين أيضا أنه "حين نشأت هذه الطريقة تولد عنها معارضة النصوص بالإجماع المجهول، وانفتح باب دعواه، وصار من لم يعرف الخلاف من المقلدين إذا احتج عليه بالقرآن والسنة: قال هذا خلاف الإجماع، وهذا هو الذي أنكره أئمة الإسلام، وعابوا من كل ناحية على من ارتكبه، وكذبوا من ادعاه". (انظر إعلام الموقعين ١٧٤-١٧٥).

ومعنا في المقالة مثال لذلك في "ثالثا"، من نقل بعض الأصوليين الإجماع في مسألة العام والخاص ونقل غيرهم خلافه (فارجع إليها) وفي مسألة الطلاق المعلق، ذكر بعض أهل العلم الإجماع على وقوع الطلاق المعلق بإطلاق (انظر فتاوى السبكي ٣٠٩/٢، الفتاوى الكبرى لابن تيمية ٢٠٧/٣، المجموع للنووي ٨٣/٣٢).

وأجيب عن هذا الإجماع، بأن المقصود به الطلاق المعلق بصفة، إذا قصد وقوع الطلاق بوقوع الشرط (انظر القواعد النورانية لابن تيمية ٣٢٩/١)، وذكر ابن القيم أن الطلاق المعلق فيه خمسة آراء (انظر إغاثة اللهفان ١٧٣-١٧٤)

قرائن منفصلة:

استُخدمت مجموعة من القرائن المنفصلة لو اعتبرنا أن الأصل هو حديث ابن عمر الذي في البخاري طلق رجل امرأته البتة... الحديث (سبق ذكره):

١- حديث ليلى بنت العجماء (سبق).

٢- فتوى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن الحالف بالطلاق لا شيء عليه.

٣- أثر طاوس: ليس الحلف بالطلاق شيئًا.

٤- أثر عكرمة: أنها من خطوات الشيطان لا يلزم بها شيء. (انظر لهذه الآثار إعلام الموقعين ٥١/٣-٥٥).

الخلاصة: رأينا على مدى حلقات البحث أنه لا يوجد نص صحيح صريح يتعلق بالطلاق المعلق، وكذلك رأينا عدم انعقاد الإجماع في الطلاق المعلق بإطلاق، واختلاف الصحابة وبعض أصحاب المذاهب في الطلاق المعلق المستخدم كيمين. بل رأينا ابن حزم ومن وافقه يقول بعدم وقوع الطلاق المعلق بجميع صوره.

لذا فأنا أرى - والله أعلم - ترجيح ما ذهب إليه ابن تيمية وابن القيم ومن وافقهما بعدم وقوع الطلاق المعلق إن قصد به الحث أو المنع أو التهديد أو الزجر، ففيه كفارة يمين. ووقوع الطلاق المعلق بالصفة، وهو الطلاق الذي يقصد به صاحبه وقوعه حقيقة عند حصول الشرط المعلق عليه (كمن قال: إن جاء رمضان القادم فأنت طالق)، هذا والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين.

ظهور البدع في العقائد..

خطورة بدع الاعتزال والجبر والإرجاء

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

ما يزال الحديث متصلاً عن مخاطر البدع العقدية، وذكرنا بدعتي الخوارج والتشيع، وتتمة لهذا الموضوع نعرض لأهم أصول بعض الفرق المبتدعة الأخرى، ونبدأ في العدد بإيضاح بدع الاعتزال والجبر والإرجاء، ونسأل الله الثبات على الحق، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

ثالثا: بدعة المعتزلة:

(أ) التعريف بهم:

المعتزلة سُموا بهذا الاسم؛ لأن مؤسس هذه الفرقة هو واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري بعد أن اختلف معه في حكم مرتكب الكبيرة، وذلك أن رجلًا دخل المسجد ذات يوم، وكان الإمام الحسن البصري - رحمه الله - يُدرِّس فيه، فسأل عن حكم مرتكب الكبيرة، وقبل أن يجيب الحسن البصري - رحمه الله - قال واصل - وكان من تلاميذ الحسن البصري -: إنه في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم بعد ذلك انحاز وجلس في ناحية من نواحي المسجد بعيدًا عن الحسن البصري؛ ليقرر ما ذهب إليه؛ فقيل له ولأتباعه معتزلة.

وتذكر بعض الروايات في التاريخ أن الحسن البصري قال: اعتزلنا واصل، اعتزلنا واصل؛ فسموا بالمعتزلة.

أهم أصولهم البدعية:

١- التوحيد.
٢- العدل.
٣- إنجاز الوعيد.
٤- المنزلة بين المنزلتين.
٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٦- الغلو في شأن العقل.

(ب) شرح أهم أصولهم البدعية:

الأصل الأول: التوحيد:

قد يغتر مَن يسمع هذه الكلمة فيظن أنهم دعاة إلى توحيد الله عز وجل كما كان عليه السلف، ولكن المعتزلة عنوا بالتوحيد نفي الصفات عن الله - تبارك وتعالى - وقالوا: إن هذه الصفات ليست شيئًا غير الذات؛ لأنها لو شاركت الله في القِدم الذي هو أخص وصف لذاته عندهم لشاركته

في الإلهية، فلا قديم غير ذاته، إذ محال وجود قديمين، وقد بنوا على هذا الأصل معتقدات فاسدة؛ منها: نَفْيُ علو الله تعالى على خلقه، واستحالة رؤية الله تعالى بالأبصار، وأن كلام الله تعالى محدث في محل؛ لأنهم ينفون صفة الكلام عن الله عز وجل كما اتفقوا على نفي الإرادة والسمع والبصر، وعلى أنها ليست معاني قائمة بذاته، لكن اختلفوا في وجودها ومحامل معانيها؛ فقالوا: إن الله مريد بإرادة حادثة لا في محل، ونفوا السمع والبصر عنه سبحانه، واختلفوا في تأويلها على أقوال، فمنهم مَن حملها على الحياة، ومنهم مَن حملها على نفي الآفة، وحمَلها البغداديون منهم على العلم.

الأصل الثاني: العدل:

ومعنى العدل عند هؤلاء: تضمنه لتكذيب القدر، فهم قالوا: إن الله عدل وأنه عادل، وأرادوا بذلك نفي خلق الله لأفعال العباد، وأن يكون الله - تبارك وتعالى - أراد كل ما يقع في هذا الكون؛ لأنه في معتقد هؤلاء أن الله لا يخلق أفعال العباد، والعباد يفعلون ما أمروا به وينتهون عن ما نهوا عنه بالإرادة والقُدَر التي جعلها الله وركَّبها فيهم. وقد وقعوا في ذلك لخلطهم بين إرادة الله الكونية وإرادته الشرعية؛ فقالوا: إن الله منزَّه أن يضاف إليه شر وظلم، وفعل هو كفر ومعصية؛ لأنه لو خلق الظلم ثم حاسب عليه وعذَّب لكان ظالمًا، والله منزه عن ذلك. والعبد عندهم قادر خالق لأفعاله، خيرها وشرها.

الأصل الثالث: الوعيد:

وفي هذا يقولون: إنَّ وعد الله تعالى بالثواب واقع، ووعيده بالعقاب واقع، وأنه تعالى يفعل ما وعد به وما توعد عليه لا محالة، ولا يجوز الخلف، وبنوا على هذا الأصل الفاسد أن الفاسق إذا مات على غير توبة عن كبيرة ارتكبها؛ فإنه يدخل النار مخلدًا فيها؛ لأن الله توعَّده بذلك، ولا بد أن ينفذ وعيده، لكن عذابه يكون أخفَّ من عذاب الكافر الأصلي.

ويقولون أيضًا: إن مَن دخل النار من فُساق هذه الملة لا يخرج منها أبدًا لا بشفاعة ولا بغيرها؛ ولهذا فهم ينكرون الشفاعة في مرتكبي الكبائر.

الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين:

ويعنون بذلك أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنًا ولا كافرًا، ولكنه في منزلة بين الإيمان والكفر، ولكنه إذا خرج من الدنيا من غير توبة فهو من أهل النار خالد فيها، ولكن تُخفف عنه النار فيخلد في غير طبقة الكفار الأصليين، ولا بأس من معاملة هذا الفاسق معاملة المسلمين في الدنيا؛ لأن التوبة مرجوة، وإن كان لا يسمى مؤمنًا؛ لأن المؤمن اسم مدح، والفاسق لا يستحق المدح، وليس بكافر أيضًا لإقراره بالشهادتين.

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ويتضمن هذا الأصل عندهم جواز الخروج على الأئمة، وقتالهم بالسيف، وأيضًا كانوا يجوزون قتال المخالف لهم من عامة الناس إذا كان في مقدورهم ذلك.

قال الأشعري: قالت المعتزلة: إذا كنا جماعة وكان الغالب عندنا أنَّا نكفي مخالفينا؛

المعتزلة عنوا بالتوحيد نفي الصفات عن الله - تبارك وتعالى - وقالوا: إن هذه الصفات ليست شيئًا غير الذات.

عقدنا للإمام ونهضنا فقتلنا السلطان وأزلناه، وأخذنا الناس بالانقياد لقولنا، فإن دخلوا في قولنا الذي هو التوحيد، وفي قولنا بالقدر، وإلا قتلناهم.

وأوجبوا الخروج على السلطان على الإمكان والقدرة، ويظهر من كلامهم: أن الخروج على الأئمة وقتال المخالفين واجب، إذا ما وجدت الاستطاعة والقدرة فهو عندهم كالجهاد في سبيل الله.

الأصل السادس: الغلو في شأن العقل:

إن أبرز أسباب انحراف المعتزلة اعتمادهم على العقل اعتمادًا كليًا في معرفة حقائق الأشياء وإدراك العقائد، فقاسوا أفعال الله تعالى على أفعال العباد، وقالوا: ما يحسن من العباد يحسن منه، وما يقبح من العباد يقبح منه، وعندهم أن التوحيد والعدل من أصولهم العقلية التي لا يثبت صحة السمع إلا بعدها، والسنة الاستدلال بها اعتضادًا لا اعتمادًا. فهم بمنزلة من اتبع هواه واتفق أن الشرع جاء بما يهواه.

وكان من آثار غلوهم أيضًا في الاعتماد على العقل أنهم أخذوا يؤولون صفات الله - تبارك وتعالى - بما يلائم عقولهم القاصرة حتى نفوا جميع الصفات عن الله سبحانه.

ومن آثار ذلك أيضًا: طعنهم في كبار الصحابة، حتى زعم واصل بن عطاء أن إحدى الطائفتين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين فاسقة، وكذلك قال في عثمان وقاتليه وخاذليه.

رابعًا: بدعة الجبرية

(أ) التعريف بهم:

يعتقد الجبرية أن العبد ليس له اختيار في أفعاله، وأنه مجبور على معاصيه، وأن الله إذا عاقب العاصي؛ فإنه ظالم، حيث إن الله تعالى هو الذي قصرهم وجبرهم وأوقعهم في الكفر، وأوقعهم في المعاصي وألزمهم بها، فإذا عذبهم على ذلك فقد عذبهم بغير ذنب وبغير جُرم يستحقونه، ويزعمون أن العبد مجبور ومقهور ومقصور على فعل الذنب وليس له اختيار، وهم يمثلونه بالشجرة التي تحركها الرياح ليس لها أي اختيار.

ويقولون: إنه مدفوع دفعه الله إلى الكفر وإلى المعصية دفعًا، وهو لا يقدر على الامتناع عن ذلك، وقد مثل قائلهم لهذا المعتقد بقول الشاعر:

ألقاه في البحر مكتوفًا وقال له
إياك إياك أن تبتل بالماء

ويقولون: إن هذا البيت مثل تعذيب الله للعبد عندما يعذبه وقد جبره، وقصره على فعله، فمن ألقى إنسانًا مكتوفًا في البحر، وقال له: لا تبتل بالماء، أمر مستحيل لا يمكن أن يكون. وقد قالوا بناء على هذا: إن العبد مجبور؛ وبالتالي لا يعاقب، ولا ينبغي أن يعاقب، ولذلك أتوا بباطل عظيم للغاية، وجعلوا للعصاة عذرًا في اقتراف المعاصي، وأنهم معذورون بالذنوب التي يرتكبونها؛ لأنهم مجبورون، وليس لهم اختيار فيما يفعلون.

(ب) ذكر أهم مبادئهم:

المبدأ الأول:

أنهم قالوا: الإنسان مجبور في فعله، فلا يوصف بالاستطاعة، ولا قدرة له، ولا اختيار، ويخلق الله فيه الأفعال كما يخلقها في الجمادات.

إن أبرز أسباب انحراف المعتزلة اعتمادهم على العقل اعتمادًا كليًا في معرفة حقائق الأشياء وإدراك العقائد، فقاسوا أفعال الله تعالى على أفعال العباد.

المبدأ الثاني:

القول بخلق القرآن؛ لإنكارهم صفة الكلام.

المبدأ الثالث:

قالوا: إن الله لا يوصف بصفة يوصَفُ بها خلقُه، هكذا ذهبوا، وقالوا وزعموا؛ لأن هذا يقتضي التشبيه، ولهذا نفوا صفات المعاني عن الله - تبارك وتعالى - وغيرها من الصفات الخبرية الثابتة لرب البرية، وشاركوا بذلك الجهمية والمعتزلة.

المبدأ الرابع:

وجوب المعرفة بالعقل، والإيمان هو المعرفة، كما أنكروا رؤية الله - تبارك وتعالى - وزعموا أن الرؤية يستلزم منها تشبيه رب العالمين - سبحانه- بخلقه.

المبدأ الخامس:

القول بفناء الجنة والنار، بعد تلذذ أهل الجنة بنعيمها وتألم أهل النار بحميمها، وقد تأثر الحلولية والاتحادية من أمثال ابن عربي وغيرهم بفكر هؤلاء الناس، وقالوا بفناء الجنة والنار، وأنها تفنى ويبقى أهلها يتلذذون فيها.

خامسا: بدعة المرجئة

(أ) تعريف بهؤلاء المرجئة، وبالإرجاء:

الإرجاء هو تغليب جانب الرجاء، وقد ذهب أصحاب هذه البدعة إلى أن الإنسان لا تضره المعاصي، وأن عليه أن يرجُوَ رحمة الله ولو أكثر من الذنوب، ويقولون: إن المعاصي تنمحي إذا كان الإنسان موحدًا؛ لأنها لا تضر الموحد، ويقولون: إنه لا يضر مع التوحيد ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل.

وهذه الطائفة المبتدعة قد فتحت الأبواب على مصراعيها للعصاة، وقالت لهم: افعلوا ما تشاءون، وما تقدرون عليه من الذنوب.

وقالوا: بأنه لا علاقة بين العمل وبين الإيمان. وبعضهم ذهب إلى أن الإيمان هو المعرفة القلبية لله فحسب، فمَن عرف ربه بقلبه حتى ولو لم ينطق بلسانه الشهادتين، فهو مؤمن كامل الإيمان.

كما زعموا أيضًا بأن الإيمان بناء على ذلك لا يزيد ولا ينقص، ولا يتفاضل، وأن إيمان الناس كلهم سواء، وهؤلاء قابلوا طائفة الوعيدية، وهم الخوارج، فالخوارج مع المرجئة طرفا نقيض؛ لأن الخوارج تكفِّر بالذنب، وتقول بخلود أصحاب الكبائر في النار، وهؤلاء يقولون للمذنبين: افعلوا ما شئتم من المعاصي والسيئات، فلن يضركم شيء من ذلك.

(ب) ذكر أهم مبادئهم:

من مبادئهم: أنهم قالوا: إن الإيمان تصديق ومعرفة، والعمل لا أثر له مطلقًا في الإيمان، وقالوا: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، كما زعموا: أن الإيمان اعتقاد بالقلب فقط وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأصنام، أو لزم اليهودية أو النصرانية في دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن، ولا شك أن مَن وصَل أمره إلى اعتقاد هذا كان خارجًا من الملة، كيف يمكن لإنسان أن يدين باليهودية والنصرانية، ويزعم أنه مؤمن طالما أنه عرف ربه سبحانه!!

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

> الخوارج مع المرجئة طرفا نقيض؛ لأن الخوارج تكفِّر بالذنب، وتقول بخلود أصحاب الكبائر في النار، وهؤلاء يقولون للمذنبين: افعلوا ما شئتم من المعاصي والسيئات، فلن يضركم شيء من ذلك.

باب الفقه

صفة الصلاة

الجلسة بين السجدتين وجلسة الاستراحة

(حكمها - صفتها - ما يقال فيها)

إعداد/ د. حمدي طه



الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

نتناول في هذا العدد أحكام الجلسة بين السجدتين وجلسة الاستراحة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

أولا: حكم الجلسه بين السجدتين

١- حكمها: ذهب المالكيّة، والشّافعيّة، والحنابلة إلى أنّها ركن. وهو قول للحنفية - من أركان الصّلاة، سواء أكان في صلاة الفرض أم النّفل.

ودليلهم ما روت عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «كان النّبيّ صلى الله عليه وسلم إذا رفع رأسه من السّجدة لم يسجد حتّى يستوي جالساً». «ولقول النّبيّ صلى الله عليه وسلم للمسيء صلاته: ثمّ ارفع حتّى تطمئنّ جالساً» فهذا دليلٌ على أنه لا بُدَّ من الجلوس بين السجدتين.

وهي سنّة عند الحنفيّة في المشهور من المذهب، وروي وجوبها. يقول ابن عابدين: وهو الموافق للأدلّة، وعليه الكمال بن الهمام ومن بعده من المتأخّرين. (الموسوعة الفقهية ٢٦٦/١٥).

وزاد المالكيّة والحنابلة قبل هذا الرّكن ركناً آخر وهو الرّفع من السّجود، والمراد بذلك أن يحصّل القعْدة وذلك بالرفع من السجود، فإذا اعتدل من السجود حصل الركن، وهذا الاعتدال أمر به النبي صلى الله عليه وسلم في حديث المسيء صلاته فقال له: (ثم ارفع حتى تستوي جالساً)، فدل على ركنية هذا الرفع من السجود وأنه يُلزم به، وقد ذكره في موضعين: في السجدة الأولى وفي السجدة الثانية، فقال: (حتى تستوي جالساً)، وقال: (ثم ارفع حتى تعتدل قائماً)، فدل على ركنين: الركن الأول: الرفع من السجود أو الاعتدال عنه. والركن الثاني: الجلسة بين السجدتين. (شرح زاد المستقنع للشنقيطي ١٠٥/٢).

٢- الطمأنينة فيها:

هو رُكن عند جمهور الفقهاء ودليله: أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لمَّا عَلَّمَ المسيءَ صلاته كان يقول له في كلِّ رُكن: «حتى تطمئنَّ»، فلا بُدَّ من استقرار وطمأنينة. والحكمة من الطمأنينة: أنَّ الصلاةَ عبادة، يناجي الإنسانُ فيها ربَّه، فإذا لم يطمئنَّ فيها صارت كأنها لَعِبٌ. والحاصل: أنَّ الطمأنينة لا بُدَّ منها، فهي والخشوع روح الصَّلاة في الحقيقة. (الشرح الممتع ٣/٩٧).

ويُسَنُّ للمصلي تطويل الجسلة بين السجدتين لتكون نحواً من قدر السجود، ولا يحل له أن تتواصل حركته بين السجدتين، فعن البراء رضي الله عنه قال «كان ركوع النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - وسجوده، وإذا رفع رأسه من الرُّكوع، وبين السجدتين قريباً من السواء» رواه البخاري. وعن أنس رضي الله عنه قال «إني لا آلو أن أصلي بكم كما رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - يصلي بنا، قال ثابت: كان أنس يصنع شيئاً لم أركم تصنعونه، كان إذا رفع رأسه من الركوع قام حتى يقول القائل قد نسي، وبين السجدتين حتى يقول القائل قد نسي» رواه البخاري وفي رواية مسلم «ثم يسجد ويقعد بين السجدتين حتى نقول قد أوهم». (الجامع لأحكام الصلاة ٢/٢٦٦).

٣- الدعاء في هذه الجلسة:

في الجلوس بين السَّجدتين يسنّ الاستغفار عند الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشَّافعيَّة، وهو قولٌ عن أحمد وإنَّما لم يجب الاستغفار، لأنَّ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم لم يعلّمه المسيء صلاته. والمشهور عند الحنابلة أنَّه واجبٌ، وهو قول إسحاق وداود، وأقلّه مرَّةٌ واحدة، وأقلّ الكمال ثلاثٌ. (الموسوعة الفقهية ٥/٣٧) والأرجح كما مر معنا قبل ذلك هو قول الجمهور.

وقد رُويت أحاديث في الدعاء في هذه الجلسة نذكر منها:

١- عن ابن عباس أنه قال: «كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلم يقول بين السجدتين: اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وعافني، وارزقني» وفي لفظ: رب اغفر لي وارحمني (واجبرني) (وارفعني) واهدني - (وعافني) وارزقني). رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

٢- روى حذيفة: أنه صلى مع النبي صلَّى الله عليه وسلم، فكان يقول بين السجدتين: «رب اغفر لي، رب اغفر لي». (صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم محمد ناصر الدين الألباني ص١٥٣).

فإما يُدعى بالدعاء الأول أخذاً بالخير كله. وإن هو أحب الاختصار والاقتصار على دعاء واحد فلْيقل (رب اغفر لي، رب اغفر لي) يكرِّرها.

٤- كيفية الجلوس بين السجدتين:

الجلوس بين السَّجدتين يجزئ على أيِّ كيفيَّة كان، ما لم يخرج عن مُسمَّى الجلوس. وصفة الجلوس بين السَّجدتين عند الشَّافعيَّة والحنابلة وأبي يوسف الافتراش.

وعند المالكيَّة التَّورُّك كجلوس التَّشهّد، ولا خلاف في وضع اليدين على الفخذين عند الجميع، لأنَّه من تمام صفة الجلوس. (الموسوعة الفقهية ١٥/٢٦٦).

أما كيفية الجلوس، فيجلس مفترشاً يسراه. «مفترشاً يسراه» أي: يُسرى رجليه، أي: جاعلاً إيَّاها كالفراش، والفراشَ يكون تحت الإنسان، أي: يضعها تحته مفترشاً لها لا جالساً على عقبيه، بل يفترشها، وعليه: فيكون ظهرُها إلى الأرض وبطنُها إلى أعلى.

ناصباً يُمناه. أي: جاعلها منتصبة، والمراد: القدم، وحينئذ لا بُدَّ أن يخرجها من يمينه، فتكون الرِّجلُ اليُمنى مخرجة من اليمين، واليسرى مُفتَرشةً، أي: أنه يجلس بين السَّجدتين هكذا، لا يجلس متورِّكاً وهذه الصفة متفق عليها. (الشرح الممتع ٣/٤٠)

عن أبي حُمَيد الساعدي قال «... كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا قام إلى

الصلاة اعتدل قائماً، فذكر بعض الحديث وقال... ثم هوى ساجداً وقال: الله أكبر، ثم ثنى رجله وقعد فاعتدل حتى يرجع كل عظم إلى موضعه ثم نهض». (أخرجه الترمذي وابن ماجه، وصححه الألباني).

ويُسنّ في هذه الجلسة أيضاً الإقعاء، أي الجلوس على العقبين، معتمداً على رؤوس أصابع القدمين، والركبتان على الأرض، أي ينصب القدمين ويجلس عليهما، لما رُوي عن طاووس أنه قال «قلنا لابن عباس في الإقعاء على القدمين في السجود فقال: هي السنّة، قال قلنا: إنا لنراه جفاءً بالرجل، فقال ابن عباس: هي سنة نبيك - صلى الله عليه وسلم -» رواه أبو داود، ورواه الترمذي وابن خزيمة.

أما الإقعاء الذي ورد النهي عنه في عدد من الأحاديث فإنه غير هذا الإقعاء المسنون، وهو أن يُلصق إلْيَيَه بالأرض، وينصب ساقيه ويضع يديه على الأرض يفعل كما يفعل الكلب. أضف إلى ذلك أن بعض أهل العلم يرى أنّ جميع الأحاديث التي ورد فيها النهي عن الإقعاء رويت بأسانيد ضعيفة لا تصلح للاحتجاج. (الجامع لأحكام الصلاة ٢/٢٦٧).

ثانياً: جلسة الاستراحة:

هي الجلسة الخفيفة التي تَعْقُب الفراغ من السجدة الثانية وقبل النهوض إلى الركعة الثانية وإلى الركعة الرابعة، أي إذا فرغ المصلي من الركعة الأولى وأراد أن يقوم للركعة الثانية جلس جلسة قصيرة ثم قام، وإذا فرغ من الركعة الثالثة وأراد أن يقوم للركعة الرابعة جلس جلسة قصيرة ثم قام، وتسمى جلسة الاستراحة. (الجامع لأحكام الصلاة ٢/٢٦٨).

وقد ذهب الحنفيّة والمالكيّة وهو مقابل الأصحّ لدى الشّافعيّة، والصّحيح من المذهب لدى الحنابلة إلى أنّ المصلّي إذا قام من السّجدة الثّانية لا يجلس جلسة الاستراحة، ويكره فعلها تنزيهاً لمن ليس به عذر.

وروي ذلك عن عمر وعليّ وابن مسعود، وابن عمر وابن عبّاس رضي الله عنهم، وبه قال الثّوريّ وإسحاق، قال التّرمذيّ: وعليه العمل عند أهل العلم، وقال أبو الزّناد: تلك السّنّة. ويرى الشّافعيّة في الأصحّ وهو رواية ثانية عن أحمد اختارها الخلّال أنّه يسنّ بعد السّجدة الثّانية جلسة للاستراحة في كلّ ركعة تقوم عنها، لما روى مالك بن الحويرث: «أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم كان يجلس إذا رفع رأسه من السّجود قبل أن ينهض في الرّكعة الأولى». (الموسوعة الفقهية ١٥/٢٦٦).

ولخّص مالك بن الحويرث رضي الله عنه هذا الموضوع بقوله «إنه رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - يصلي، فإذا كان في وِترٍ من صلاته لم ينهض حتى يستوي قاعداً» رواه البخاري وأبو داود والترمذي وابن خُزَيمة. قوله في وتر من صلاته: يعني الركعات الفردية غير الزوجية، وهما الركعتان الأولى والثالثة. (الجامع لأحكام الصلاة ٢/٢٦٩).

أما كيفية الجلوس، ففي رواية ابن خُزَيمة الإجابة عليها «ثنى رجله وقعد فاعتدل، حتى يرجع كل عظم إلى موضعه». والمقصود بالرِّجل المثنيَّة الرِّجل اليسرى، فالجلسة تكون بأن يثني رجله اليسرى - أي يفرشها - وينصب الرِّجل اليمنى، ثم يقعد على اليسرى، وهي تماثل الجلسة للتّشهد الأوسط.

إلا أنه لو أقعى في هذه الجلسة على قدميه المنصوبتين فلا يكون في ذلك بأس، وربما كانت هذه الكيفية أسهل في النهوض، فالأمر موسَّع، والله عزَّ وجلَّ أعلم. (الجامع لأحكام الصلاة ٢/٢٦٩).

ومن خصائص جلسة الاستراحة - عند من يقول بها - أنّها لا يدعو فيها بشيء. (الموسوعة الفقهية ١٥/٢٦٧).

وللحديث بقية إن شاء الله.

نظرات في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

حجرات نساء النبي صلى الله عليه وسلم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، وبعد:

فإن الله تعالى بعث نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم وجعله لأمته مثلاً وقدوة، وسراجًا منيرًا يضيء للأمة طريقها، فلا تضل ولا تشقى، ورسول الله عليه الصلاة والسلام كان أكرم الخلق على الله عز وجل، ومع ذلك لم يعطه من الدنيا ما أعطى الملوك، وذلك لهوان الدنيا عند الله، ولو كانت الدنيا وزينتها مكرمة وكرامة لكان أولى بها نبينا صلى الله عليه وسلم، ومع هذا لما خيَّر الله نبيه بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة واكتفى بأن يكون رزق آل محمد قوتًا، أي يومًا بيوم، وأن تكون أبياته وأبيات نسائه بقدر ما يستر ويُكنّ، ومتاعه فيها بقدر ما يبلغ الحاجة، فاللهم صلِّ عليه وسلم تسليمًا كثيرًا.

إعداد/ جمال عبد الرحمن

حجرات نساء النبي صلى الله عليه وسلم:

قال الله عز وجل: « إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » (الحجرات:٤)، وقد سميت سورة في القرآن الكريم باسم الحجرات التي كانت محل عناية من الشرع الحكيم، لأنها اكتسبت تلك العناية لما كان لساكنيها عند الله تعالى من المنزلة والكرامة، ولذا قال الله تعالى لنساء النبي صلى الله عليه وسلم: « وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا » (الأحزاب:٣٤)، وحفاظًا على حرمة هذه البيوت، قال الله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ » (الأحزاب:٥٣).

وقد كانت بيوت النبي صلى الله عليه وسلم وحجرات نسائه عبارة عن قطعتين، البيت الذي تبيت فيه زوجته، وأمامه في المقدمة الجزء المخصص الذي يعتبر الحجرة الواسعة، والأول الذي يمثل المسكن يكون من الطوب اللبن، أما الحجرة التي عند الباب كحرم للبيت فهذه كانت من جريد النخل، قال داود بن قيس رحمه الله: رأيتُ الحجرات من جريد النخل مغشيًا عليها (أي مغطاةً) من خارج بمسوح الشعر». (البخاري في الأدب المفرد ص١٥٥ ح٤٥١، وصححه الألباني).

ومسوح الشعر هو الكساء المصنوع من شعر الأنعام.

ويُفهم لذلك حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها». (أبو داود ح٥٧٠).

فالبيت أستر من الحجرة التي هي أقرب إلى الباب والطريق.

بناء الحجرة بعد الهجرة:

لقد بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قدم المدينة النبوية ببناء مسجده، ومع بناء المسجد بنى صلى الله عليه وسلم بيوت نسائه، وانظروا أيها

المؤمنون كيف بنى رسولكم سيد البشر وأكرم الخلق على الله تعالى حجرات نسائه، فعن أم المؤمنين عائشة بنت الصديق أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفنا وخلف بناته، فلما استقر بالمدينة بعث زيد بن حارثة، وبعث معه أبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذها من أبي بكر يشتريان بها ما يحتاجان إليه من الظَّهر، وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط الدؤلي ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى عبد الله بن أبي بكر أن يحمل أهله (أم أبي بكر، وأم رومان زوجته، وأنا وأخي وأسماء امرأة الزبير)، وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة، وحمل زيد أم أيمن وولدها أيمن، وأسامة.. ثم إنا قدمنا المدينة، فنزلتُ مع عيال أبي بكر، ونزل آلُ النبي صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ يبني المسجد، وأبياتًا حول المسجد، فأنزل فيها أهله، فمكثنا فيها أيامًا، ثم قال أبو بكر: يا رسول الله؛ فما يمنعك أن تبني بأهلك؟ قال: الصداق، فأعطاه اثنتي عشرة أوقية ونَشًّا (ونصفًا) فبعث بها إلينا، وبنى بي رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي هذا الذي أنا فيه، وهو الذي توفي فيه، ودُفن فيه، وأدْخل رسول الله عليه الصلاة والسلام سودة بنت زمعة معه أحد تلك البيوت». (أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٤/٢٣ ح٥٠، وفيه محمد بن الحسن، قال عنه ابن تيمية: صاحب أخبار، وهو مضعَّف عند أهل الحديث كالواقدي ونحوه، ولكن يستأنس بما يرويه ويعتبر به. اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٢٥٠)).

فالخبر السابق يبين متى وكيف بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرات نسائه رضي الله عنهن، وأنه هاجر وقد ترك أهله وبناته، إلا رقية التي هاجرت مع عثمان رضي الله عنهما، وزينب التي بقيت بمكة مع زوجها أبي العاص الذي لم يكن أسلم بعد، ولم يفرق الإسلام بينهما في هذه الفترة.

وصف حجرة عائشة رضي الله عنها:

حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي البيت الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يقيم معها فيه، وهي في الجهة الشرقية الجنوبية من المسجد النبوي (يعني: على شمال الواقف في الروضة الشريفة متجهًا إلى القبلة)، بُني هذا البيت مع بناء المسجد النبوي بالطين واللَّبِن والجريد، وغطي بمسوح (أغطية) الشَّعر، لا تزيد مساحة هذا البيت على ٣,٥٠×٥ متر، لهذا البيت باب من خشب العرعر أو الساج، وهو خشب قابل للتزيين والنقش، هذا الباب جهة الروضة الشريفة في المسجد يليه الحوش الذي يلاصق بابه بالروضة.

قال داود بن قيس رحمه الله: «رأيت الحجرات من جريد النخل مغشيًا (مغطى) من خارج بمسوح (كساء) الشعر، وأظن عرض البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحوًا من ست أو سبع أذرع، وحَزَرْتُ (قدَّرتُ) البيت الداخل عَشرة أذرع». (سبق تخريجه، وصححه الألباني).

والذراع نحوٌ من ٣٥ سم تقريبًا.

وهذا يعني أن الغرفة الداخلية التي تبيت فيها أم المؤمنين كانت ثلاثة مترات × ثلاثة مترات ونصف المتر، والحجرة الخارجية كانت مترين × ثلاثة مترات ونصف، فيكون المجموع ٥×٣,٥٠ مترًا، وكان باب غرفة أم المؤمنين ذا مصراع واحد (دلفة واحدة)، وباب الحجرة الخارجية ستار وليس من الخشب، وهو مواجه للمسجد مباشرة، وعلى هذا الباب كان النبي صلى الله عليه وسلم يستر أم المؤمنين بجسده وهي تنظر إلى الأحباش الذين يلعبون بالحراب في المسجد، وعلى هذا الباب أيضًا كان النبي صلى الله عليه وسلم يدلي رأسه من المسجد وهو معتكف لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وهي في الحجرة الخارجية (الحوش) فتمشط شعره صلى الله عليه وسلم.

وعلى هذا الباب أيضًا (باب الحوش) وقف النبي صلى الله عليه وسلم حين نهض من مرض موته، وقد أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم ينظر لأصحابه ضاحكًا متبسمًا مسرورًا معجبًا بانتظام أمته خلف خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد رآه الصحابة وكادوا يفتتنون لما رأوه معافًا، وتقهقر أبو بكر ليتقدم النبي صلى الله عليه وسلم للصلاة، ولكنه عليه الصلاة والسلام أشار إليهم أن يستمروا في صلاتهم، وأسدل الستر ودخل



إلى البيت ورجع فاستلمته الحمى ومات في نفس اليوم فكانت صحوة الموت، وقد ذكر البخاري هذا الحديث برقم (١٢٠٥)، ومسلم (٤١٩).

ولم تكن أسقف بيوت النبي صلى الله عليه وسلم وحجرات أزواجه مرتفعة، قال الحسن البصري: «كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم زمن عثمان في خلافته فأتناول سقفها بيدي». (البخاري في الأدب المفرد ح٤٥٠، وصححه الألباني).

وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجرة عائشة رضي الله عنها وهي الغرفة الداخلية المبنية باللبن، ودُفن فيها عليه الصلاة والسلام من جهة القبلة، وظل الجزء الشمالي منها سكنًا لأم المؤمنين رضي الله عنها، وعندما توفي الصِّديق والدها رضي الله عنه دُفن خلف النبي صلى الله عليه وسلم بذراع، نازلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم بحيث تكون رأسه عند كتفي النبي صلى الله عليه وسلم، ولما توفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه دُفن فيها أيضًا خلف أبي بكر بذراع نازلاً عن أبي بكر بحيث يكون وجهه إلى منكبي أبي بكر، رضي الله عن الجميع.

وظلت الجهة الخلفية الشمالية مسكنًا لأم المؤمنين بقية حياتها وكان بينها وبين القبور ساترٌ (جدار) يحجبها، حتى توفيت ودُفنت بالبقيع، ولم تُسكن الحجرة من بعدها. (كتاب المدينة المنورة تاريخ ومعالم- مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، بتصرف يسير).

أعظم حياء عُرف في النساء:

كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بعد دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غرفتها وبعده أبوها الصديق رضي الله عنه؛ تدخل عند قبريهما بثياب بيتها، حاسرة عن رأسها، فهو زوجها وهو أبوها، فلما دُفن عمر رضي الله عنه استحيت من الدخول على القبور هكذا فلبست الحجاب.

قال الإمام مالك رحمه الله: «قُسم بيت عائشة رضي الله عنها باثنين؛ قسم كان فيه القبور، وقسمٌ كان تكون فيه عائشة، وبينهما حائط، فكانت عائشة رضي الله عنها ربما دخلت حيث قُبر زوجها وأبوها فُضُلاً (يعني بملابس البيت والعمل)، فلما دُفن عمر رضي الله عنه لم تدخله إلا وهي جامعة عليها ثيابها». (طبقات ابن سعد ٢/٢٥٦).

وعن عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما زلت أضع خماري (لا ألبسه)، وأفضلُ في ثيابي (أي متخففة بثياب زينة) في بيتي، حتى دُفن عمر بن الخطاب فيه، فلم أزل متحفظة في ثيابي حتى بنيتُ بيني وبين القبور جدارًا فتفضَّلتُ بعد. (طبقات ابن سعد ٣/٣٣٧، وصححه الألباني).

فسبحان الله!! تستتر عن الميت الأجنبي بجدار، فماذا النساء الكاسيات العاريات لا تخشى عذاب النار؟ قال عليه الصلاة والسلام: «صنفان من أهل النار لم أرهما...» وذكر منهما: «ونساءَ كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمةَ البُختَ المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا». (صحيح مسلم ح٢١٢٨، عن أبي هريرة).

فَلْتَقْتَد أخواتنا وبنات المسلمين بنساء النبي صلى الله عليه وسلم الطاهرات العفيفات لتصل عند الله إلى أعلى الدرجات.

موقف لعمر مع عائشة وهو درس للبشرية:

لما طُعن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو يصلي بالمسلمين، تناول يد عبد الرحمن بن عوف فقدَّمه ليكمل الصلاة بالمسلمين، فلما حُمل عمر رضي الله عنه إلى البيت قال لابنه عبد الله بن عمر: انْطَلِقْ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ فَقُلْ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ السَّلَامَ وَلَا تَقُلْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنِّي لَسْتُ الْيَوْمَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا، وَقُلْ يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ. فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهَا فَوَجَدَهَا قَاعِدَةً تَبْكِي، فَقَالَ (على عمر) يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ السَّلَامَ وَيَسْتَأْذِنُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَقَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي وَلَأُوثِرَنَّ بِهِ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي، فَلَمَّا أَقْبَلَ قِيلَ هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ قَدْ جَاءَ، قَالَ عمر: ارْفَعُونِي، فَأَسْنَدَهُ رَجُلٌ إِلَيْهِ فَقَالَ: مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: الَّذِي تُحِبُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَذِنَتْ. قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنَا قَضَيْتُ فَاحْمِلُونِي ثُمَّ سَلِّمْ فَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَإِنْ أَذِنَتْ لِي فَأَدْخِلُونِي وَإِنْ رَدَّتْنِي رُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ. (البخاري (ح٣٧٠٠) من حديث عمرو بن ميمون).

هذه هي أخلاق الصحابة الكرام، وتلك هي الثمار الجَنيَّة للتربية النبوية، فأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يشتاق لأن يُدفن بجوار صاحبيه؛ النبي صلى الله عليه وسلم، وأبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، إنه كان جاورهم في الحياة، ويحب أن يجاورهم في الممات، لكن ذلك ليس بيده ولا بيد أحد من المسلمين؛ لأن ذلك في بيت عائشة رضي الله عنها، وفي حجرتها الخاصة، والنبي صلى الله عليه وسلم زوجها، وأبو بكر والدها، أما عمر فلا قرابة بينه وبين عائشة، لكنه أمير المؤمنين في نفس الوقت، وهو سلطان المسلمين الأعظم، لكن ذلك لم يدفعه أن يحرجها أو أن يصل إلى ما يريد بسلطانه، بل استأذنها لتأذن هي أو لا تأذن، وفوق كل ذلك جرَّد نفسه من السلطان والإمارة لتتعامل معه كأحد أفراد المسلمين، لكن أم المؤمنين التي كانت تقول دائمًا: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم؛ تعلم منزلة عمر في الإسلام، وعند المسلمين والدنيا كلها، في الوقت الذي كانت تحب أن تدفن هي بجوار زوجها وأبيها، وقالت: ولأوثرنه اليوم على نفسي، إنه بَذْلٌ وتنازلٌ ضخم جدًا، لا يقدر عليه إلا أمثال عائشة، مع أمثال عمر، رضي الله عنهم جميعًا.

وزيادة في كرم النفوس وعفتها عن إيقاع المسلمين في الحرج فإن عمر رضي الله عنه يأمر ابنه عبد الله عند موت عمر ودفنه أن يذهب إلى بيت عائشة رضي الله عنها مرة أخرى، ويسلم عليها ويستأذن مرة أخرى، فلعلها وافقت حرجًا منه وهو حي، فلربما تتراجع بعد وفاته؛ لكن أم المؤمنين عند موقفها الواضح: «ولأوثرنَّه به اليوم على نفسي». طيب الله نفسك وثراك يا أم المؤمنين، ورحمك الله يا عمر الفاروق، يا من أتعبت الخلفاء والأمراء والحكام بعدك إذا أرادوا أن يتأسوا بك.

لماذا كانت هذه القبور الثلاثة فقط؟

إن هؤلاء الثلاثة هم قادة البشرية؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووزيراه أبو بكر، وعمر، فهذا أبو بكر رضي الله عنه يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم كلامًا لم يقله في غيره، ففي أمره بالصلاة بالمسلمين يقول صلى الله عليه وسلم: «يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»، وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه: ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتابًا، فإني أخاف أن يتمنى مُتمنٍّ ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر. (مسلم: ٤/١٨٥٧).

وقال في عمر رضي الله عنه: «لو كان نبي بعدي لكان عمر بن الخطاب». (سنن الترمذي ٥/٦١٩، وحسنه الألباني).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: «لقد كان فيما كان قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر». وفي رواية عنه: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يُكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر». (صحيح البخاري ٥/١٢، ومسلم ٤/١٨٦٤).

ولهذه الأسباب وغيرها كانت القبور الثلاثة (رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما).

وللحديث بقية إن شاء الله لنبين: مكونات وملحقات ومحتويات الحجرة النبوية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



قصة حلق رأس آدم حين حج

نواصل في هذا التحذير تقديم البحوث العلمية الحديثية للقارئ الكريم حتى يقف على حقيقة هذه القصة التي اشتهرت وانتشرت على ألسنة القصاص والوعاظ خاصة الطرقية منهم، ومما ساعد على انتشارها وجودها في كتب السنة الأصلية، والتي أخرجها مصنفوها بأسانيدهم عن شيوخهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى القارئ الكريم التخريج والتحقيق:

إعداد/ علي حشيش

أولا: متن هذه القصة:

رُوي عن مُحَمَّد بْنِ يَحْيَى الْمُعَاذِي، قَالَ: قَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ فِي مَجْلِسِ الْوَاثِقِ وَالْفُقَهَاءُ بِحَضْرَتِه: مَنْ حَلَقَ رَأْسَ آدَمَ حِينَ حَجَّ؟ فَتَعَايَى الْقَوْمُ عَنِ الْجَوَابِ، فَقَالَ الْوَاثِقُ أَنَا أُحْضِرُكُمْ مَنْ يُنَبِّئُكُمْ بِالْخَبَرِ، فَبَعَثَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَأُحْضِرَ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْحَسَنِ مَنْ حَلَقَ رَأْسَ آدَمَ؟ فَقَالَ: سَأَلْتُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلا أَعْفَيْتَنِي، قَالَ: أَقْسَمْتُ لَتَقُولَنَّ. قَالَ: أَمَّا إِذَا أَبَيْتَ فَإِنَّ أَبِي حَدَّثَنِي، عَنْ جَدِّي، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أُمِرَ جِبْرِيلُ أَنْ يَنْزِلَ بِيَاقُوتَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ، فَهَبَطَ بِهَا، فَمَسَحَ بِهَا رَأْسَ آدَمَ، فَتَنَاثَرَ الشَّعْرُ مِنْهُ، فَحَيْثُ بَلَغَ نُورُهَا صَارَ حَرَمًا ".

ثانيا: التخريج:

الخبر الذي جاءت به هذه القصة أخرجه الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٦٤٤٠/٥٦/١٢) قال: حدثنا الحسين بن حماد المقرئ- بقزوين- حدثنا الحسين بن مروان الأنباري حدثنا محمد بن يحيى المعاذي قال: قال يحيى بن أكثم في مجلس الواثق.. القصة.

ثالثا: التحقيق:

هذه القصة واهية والخبر الذي جاءت به مسلسل بالعلل، وهذا هو البرهان:

العلة الأولى: محمد بن الحسن بن زياد

المقرئ النقاش:

١- قال الحافظ الذهبي في «الميزان» (٥٤٠٤/٥٢٠/٣): محمد بن الحسن بن محمد بن زياد الموصلي، ثم البغدادي، أبو بكر النقاش المقرئ المفسر، وقال طلحة بن محمد الشاهد: كان النقاش يكذب في الحديث والغالب عليه القصص.

وقال البرقاني: كل حديث النقاش مُنكر.

وقال أبو القاسم اللالكائي: تفسير النقاش إشقاء الصدور وليس بشفاء الصدور.

ومات النقاش سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة.

قلت: وقال السيوطي في «طبقات المفسرين» (ص٨٠): «صنف التفسير وسماه شفاء الصدور». اهـ.

٢- تأصيل هذه الأحكام في النقاش:

أ- قال الحافظ الخطيب في «التاريخ» (٦٣٥/٢٠١/٢): حدثني عبيد الله بن أبي الفتح عن طلحة بن محمد بن جعفر أنه ذكر النقاش فقال: «كان يكذب في الحديث والغالب عليه القصص».

ب- وقال: سألت أبا بكر البرقاني عن النقاش فقال: «كل حديثه منكر».

جـ- وقال: حدثني من سمع أبا بكر ذكر تفسير النقاش فقال: «ليس فيه حديث صحيح».

د- وقال: حدثني محمد بن يحيى الكرماني، قال: سمعت هبة الله بن الحسن

الطبري ذكر تفسير النقاش فقال: «ذاك أشفى الصدور، وليس بشفاء الصدور».

قلت: وهبة الله بن الحسن الطبري، هو أبو القاسم اللالكائي وهو الإمام العلامة الحافظ صاحب كتاب «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» المتوفى سنة ٤١٨هـ.

هـ- ثم قال الحافظ الخطيب البغدادي: «دلس النقاش ابن صاعد فقال: حدثنا يحيى بن محمد بن عبد الملك الخياط وأقل مما شرح في هذين الحديثين تسقط به عدالة المحدث ويترك الاحتجاج به». اهـ.

العلة الثانية: يحيى بن أكثم:

١- قال الحافظ ابن حجر في «التهذيب» (١٥٩/١١): «يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن بن سمعان التميمي الأسدي أبو محمد المروزي القاضي».

أ- قال جعفر بن أبي عثمان الطيالسي عن ابن معين: «يحيى بن أكثم كان يكذب، جاء إلى مصر فبعث إلى الوراقين فاشترى أصولهم وقال: أجيزوها لي».

ب- وقال الساجي عن عبد الله بن إسحاق الجوهري سمعت أبا عاصم يقول: «يحيى بن أكثم كذاب». اهـ.

ج- وقال محمد بن مخلد عن مسلم بن الحجاج سمعت إسحاق بن راهويه يقول: «ذلك الدجال، يعني يحيى بن أكثم يحدث عن ابن المبارك». اهـ.

د- وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عنه فقال: فيه نظر، قلت: فما تقول فيه؟ قال: «نسأل الله تعالى السلامة». اهـ.

وقال ابن أبي حاتم: سمعت علي بن الجنيد يقول: «كانوا لا يشكون أن يحيى كان يسرق الحديث». اهـ.

هـ- وقال صالح بن محمد: كان عنده حديث كثير إلا أني لم أكتب عنه وذلك أنه يحدث عن عبد الله بن إدريس بأحاديث لم يسمعها منه، وقال في موضع آخر: أكره الحديث والله عنه وذكر كلمة. اهـ.

و- وقال الأزدي: يتكلمون فيه روى عن الثقات عجائب لا يتابع عليها. اهـ.

قلت: فما ترى فيه؟ قال: نسأل الله السلامة.

ثم قال ابن أبي حاتم: سمعت علي بن الحسين يقول: «كانوا لا يشكون أن يحيى بن أكثم كان يسرق حديث الناس ويجعله لنفسه». اهـ.

قلت: ولا يغرنك بعد ما تبين حال يحيى بن أكثم من الكذب والدجل أنه القاضي لو اطلعت من ولاه القضاء.

فقد قال الإمام الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» (٧٣٨٢/١٨/٢٠): «يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي الأسيدي أبو محمد المروزي نزيل بغداد ولاه المأمون القضاء بها».

ولقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢١/٤): حال المأمون فقال:

«وَفِي دَوْلَةِ " أَبِي الْعَبَّاسِ الْمَأْمُونِ " ظَهَرَ "الخرمية" وَنَحْوُهُمْ مِنْ الْمُنَافِقِينَ وَعَرَّبَ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ الْمَجْلُوبَةِ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ مَا انْتَشَرَ بِسَبَبِهِ مَقَالَاتُ الصَّابِئِينَ، وَرَاسَلَ مُلُوكَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْهِنْدِ وَنَحْوِهِمْ حَتَّى صَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ. فَلَمَّا ظَهَرَ مَا ظَهَرَ مِنْ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ فِي الْمُسْلِمِينَ وَقَوِيَ مَا قَوِيَ مِنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ ؛ كَانَ مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ: مَا ظَهَرَ مِنْ اسْتِيلَاءِ الْجَهْمِيَّةِ ؛ وَالرَّافِضَةِ ؛ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالِ وَتَقْرِيبِ الصَّابِئَةِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ. وَذَلِكَ بِنَوْعِ رَأْيٍ يَحْسَبُهُ صَاحِبُهُ عَقْلًا وَعَدْلًا وَإِنَّمَا هُوَ جَهْلٌ وَظُلْمٌ إذْ التَّسْوِيَةُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْمُنَافِقِ ؛ وَالْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ أَعْظَمُ الظُّلْمِ، وَطَلَبُ الْهُدَى عِنْدَ أَهْلِ الضَّلَالِ أَعْظَمُ الْجَهْلِ فَتَوَلَّدَ مِنْ ذَلِكَ مِحْنَةُ الْجَهْمِيَّةِ حَتَّى امْتُحِنَتْ الْأُمَّةُ بِنَفْيِ الصِّفَاتِ وَالتَّكْذِيبِ بِكَلَامِ اللَّهِ وَرُؤْيَتِهِ وَجَرَى مِنْ مِحْنَةِ الْإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ مَا جَرَى مِمَّا يَطُولُ وَصْفُهُ». اهـ.

قلت: هذا حال المأمون الذي ولى يحيى بن أكثم قضاء البلاد، ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وَكَانَ فِي أَيَّامِ "الْمُتَوَكِّلِ" قَدْ عَزَّ الْإِسْلَامُ حَتَّى أَلْزَمَ أَهْلَ الذِّمَّةِ بِالشُّرُوطِ الْعُمَرِيَّةِ؛ وَأَلْزِمُوا الصَّغَارَ فَعَزَّتْ السُّنَّةُ وَالْجَمَاعَةُ وَقُمِعَتْ الْجَهْمِيَّةُ وَالرَّافِضَةُ وَنَحْوُهُمْ» اهـ.

قلت: ولذلك ختم الحافظ ابن حجر ترجمة يحيى بن أكثم في كتابه «التهذيب» (١٦١/١١) قال: «كان المتوكل بعد تقديمه إياه وسخطه على أحمد بن أبي داود قد سخط أيضا على يحيى وأخذ منه نحوا من مائة ألف دينار فيما قيل، فسار يحيى إلى مكة وأقام بها». اهـ.

العلة الثالثة: علي بن موسى:

قال الإمام الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» (٤٧٢٥/٤٠٨/١٣): «علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبو الحسن الرضي روى عن أبيه موسى بن جعفر الكاظم وروى عنه ابنه أبو جعفر محمد بن علي بن موسى وآخرون». اهـ.

قال الإمام الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (١٠٦/٢): «علي بن موسى الرضي: يروي عن أبيه العجائب كأنه كان يهم ويخطئ ثم ذكر له حديثًا بهذا النسب سندًا عن آبائه حتى وصل به إلى علي بن أبي طالب مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: السبت لنا والأحد لشيعتنا، والاثنين لبني أمية والثلاثاء لشيعتهم». وبإسناده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما أسري بي إلى السماء سقط إلى الأرض من عرقي فنبت منه الورد فمن أحب أن يشم رائحتي فليشم الورد». اهـ.

قلت: وهذا هو نفس السند الذي رويت به قصة «حلق رأس آدم حين حج» الذي رواه علي بن محمد عن أبيه محمد عن جده علي بن موسى عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه جعفر بن محمد، ولكن رفعه جعفر بن محمد إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن هنا كانت العلة الرابعة: وهو السقط في الإسناد يتبين ذلك:

١- من قول الحافظ ابن حجر في التقريب: «جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي أبو عبد الله المعروف بالصادق من السادسة مات سنة ثمان وأربعين ومائة». اهـ.

قلت: والسادسة طبقة عاصروا الخامسة لكن لم يثبت لهم لقاء أحد من الصحابة. كذا قاله الحافظ ابن حجر في «مقدمة التقريب» (٦/١) قال المناوي: «ومتى لم يلاقوا الصحابة لا يكونوا من التابعين، والأليق بهم أن يكونوا من طبقة كبار أتباع التابعين». اهـ.

قلت: وبهذا يكون في السند سقط بطبقتين ويكون الساقط راويين على الأقل مع التوالي.

قال الحافظ ابن حجر في «شرح النخبة» (ص٤٢): «والقسم الثالث من أقسام السقط من الإسناد: إن كان السقط باثنين فصاعدًا مع التوالي فهو المعضل». اهـ.

قلت: وهذا الحد للمعضل أدق مما قاله البيقوني عفا الله عنا وعنه، حيث قال:

والمعضل الساقط منه اثنان

وما أتى مدلسا نوعان

فقوله: «الساقط منه اثنان». أطلقه ولم يقيده وحصره في اثنين.

قلت: وبهذا يصبح الخبر الذي جاءت به القصة أيضًا فيه سقط في الإسناد سقط منه راويان أو أكثر فهو خبر معضل حيث رواه: علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وهو الذي بعث إليه الواثق عند ذكر سؤال حول: «من حلق رأس آدم حين حج؟».

فقال: حدثني أبي عن جدي عن أبيه

عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الخبر معضلاً حيث رفعه جعفر الصادق إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الخبر أن أحضر الواثق في مجلسه علي بن محمد قد بين الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦٤٤٠/٥٦/١٢) أن علي بن محمد حاله حيث قال: «هو أحد من يعتقد الشيعة والإمامية فيه ويعرف بأبي الحسن العسكري».

وهذا السند الشيعي كما بينا آنفًا ركبه الكذابون القصاصون كما بين ذلك أئمة الجرح والتعديل.

فالقصة واهية بما فيها من سقط في الإسناد، وطعن في الرواة من كذابين ودجاجلة، وسَرَقَة حديث وضعوا هذه القصة الباطلة، والتي بها كيفية تحديد حدود الحرم؛ حيث في هذا الكذب المختلق المصنوع ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أمر جبريل أن ينزل بياقوتة من الجنة، فهبط بها فمسح بها رأس آدم، فتناثر الشعر منه، فحيث بلغ نورها صار حرمًا». اهـ.

رابعًا: الصحيح في الحرم المكي وحدوده:

لقد بوب الإمام البخاري بابًا في كتاب الحج الباب (٤٣) قال: «باب فضل الحرم وقوله تعالى في سورة النمل: ٩١: «إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ» (النمل:٩١)، وقوله جل ذكره في سورة القصص: ٥٧: «أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ» (القصص:٥٧).

ثم أخرج في هذا الباب الحديث (١٥٨٧) قال: حدثنا علي بن عبد الله حدثنا جرير بن عبد الحميد عن منصور عن مجاهد عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرفها». اهـ.

قلت: ولفظ الإمام مسلم من حديث ابن عباس (ح١٣٥٣) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، فتح مكة: «إن هذا البلد حرمه الله، يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة».

وقد أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» (ح٢١٢٩) والإمام مسلم في «صحيحه» (ح١٣٦٠) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم- واللفظ لمسلم- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة».

قلت: وللجمع بين هذين الحديثين قال الإمام النووي في «شرح مسلم» (١٣٦٠): «إن إبراهيم عليه السلام حرمها بأمر الله تعالى له بذلك لا باجتهاده، فلهذا أضاف التحريم إليه تارة، وإلى الله تعالى تارة، والثاني أنه دعا لها فحرمها الله تعالى بدعوته فأضيف التحريم إليه لذلك» اهـ.

حدود الحرم المكي:

قال أبو الوليد ابن الأزرق المتوفى سنة ٢٥٠هـ في «أخبار مكة» (١٢١/٢): باب: «تحريم الحرم وحدوده ومن نصب أنصابه وأسماء مكة وصفة الحرم» في أكثر من مائة وستين سطرًا بمسنده ختمها بذكر حدود الحرم الشريف قال: «من طريق المدينة دون التنعيم عند بيوت غفار على ثلاثة أميال، ومن طريق اليمن، طرف أضاءة لبن في ثنية لبن، على سبعة أميال، ومن طريق جدة منقطع الأعشاش على عشرة أميال، ومن طريق الطائف على طريق عرفة من بطن نمرة، على أحد عشر ميلًا، ومن طريق العراق على ثنية خل بالمقطع، على سبعة أميال، ومن طريق الجعرانة في شعب آل عبد الله بن خالد بن أسيد على تسعة أميال».

هذا ما وفقني الله إليه، وهو وحده من وراء القصد.

قرائن اللغة والنقل والعقل على حمل صفات الله (الخبرية) و(الفعلية) على ظاهرها دون المجاز

الحلقة (١٥)

القرائن على إثبات صفة (القدم) وسائر ما أثبته تعالى لنفسه في كتابه وفيما صح من سنة نبيه، لله تعالى دون تأويل ولا تعطيل

إعداد/ د. محمد عبد العليم الدسوقي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

فيجب التذكير بداية بوجوب اعتقاد أن العمدة في الاحتجاج على صفات الله تعالى والحجة في إثباتها - ومنها بالطبع صفة القدم -: هي نصوص الشرع الصريحة، وأن كل ما ورد من تأويلات ارتآها من جاء بعد القرون الفاضلة، هي على كثرتها مجرد اجتهادات خاطئة لا دليل عليها ولا أساس لها من الصحة ولا مستند لها من آية أو حديث أو إجماع، وأن التمحل في إيجاد قرائن لغوية أو إدخال العقل في مثل هذا، تكلفٌ ورجمٌ بالغيب لكونها وسائر ما أثبته تعالى لنفسه مما استأثر الله بعلم كيفيته وكنهه، وأن الصواب في اعتقادها وإثباتها، أن نقول: إن الواجب الإيمان بها وتنزيهها عن مشابهة ما للمخلوقات من جوارح وأعضاء، وقطع الاستشراف في التنطع في تصويرها أو تكييفها، والجزم بأنها ليست موهمة لكونها واحدة من صفات الكمال التي دلت عليها نصوص الوحي، ولتنزهه تعالى عن صفات الحوادث، يعني: تماماً على نحو ما وجب له في إثبات صفات السمع والبصر والكلام والحياة.. إلخ.

كما أن الواجب تجاه صفة القدم لله تعالى حملها على ظاهرها وحقيقتها اللائقة به من غير تأويل ولا تحريف ولا تمثيل ولا تجسيم، ذلك لأنه سبحانه وصف نفسه بها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وهو سبحانه وحده الأعلم بنفسه والأعرف بصفاته، والأحق بأن يصف نفسه بما شاء وكيف شاء (قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ)، (البقرة/ ١٤٠)، وأيضاً لأن عقولنا قاصرة عن إدراك ذاته وصفاته بل وعن إدراك ما هو دونهما بعالمي الغيب والشهادة، فهو جل وعلا كما قال: (لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ)(الأنعام/ ١٠٣)، (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) (الشورى/ ١١)، (وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ) (الإخلاص/ ٤).

ومن ثم لزم أن نسوق من الكلام ما يدعم ويرسخ إثباتها وأن نضرب صفحاً عما خاض فيه المتكلمون مما أفضى إلى تأويلها أو تعطيلها أو تفويض معناها أو إخراجها عن ظاهرها.. ونذكر مما وجب سوقه قولة مالك رحمه الله تعالى إمام دار الهجرة في رد ما جادت به عقول المؤولة والمعطلة والمتفلسفة والمتكلمة من الأشاعرة وغيرهم: "أو كلما جاءنا رجل أجدل من رجل، تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم، لجدل هؤلاء"، وقولة أبي عبيد أحد أقطاب العلم بالقرون الفاضلة (ت ٢٢٤): "نحن نروي هذه الأحاديث ولا نريغ- أي: نطلب - لها المعاني"، وقولة أبي سليمان الخطابي تعليقاً - وقد ساقه لهما البيهقي في الأسماء والصفات ص٤٩١ -: "ونحن أحرى بأن لا نتقدم فيما تأخر عنه من هو أكثر علماً وأقدم زماناً وسناً" يعني: النبي وصحابته وتابعيهم بإحسان.

قرائن النقل وأوجه دلالتها على إثبات صفة القدم لله تعالى:

هذا، وقد ورد في صفة القدم جملة من الأحاديث الصحيحة نذكر منها مما رواه الشيخان:

١- ما رواه البخاري من طريق أبي هريرة (٤٨٥٠) - وبنحوه مسلم (٢٨٤٦) - وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: (تحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أُوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضُعفاءُ الناس وسَقَطُهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابٌ أعذب به من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ ويُزْوَى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقاً). ومعنى: «قط قط»: أي حسبي.

٢- وما رواه البخاري عنه (٧٤٤٩)، لكن بلفظ: (اختصمت الجنة والنار إلى ربهما، فقالت الجنة: يا ربِّ ما لها لا يدخلها إلا ضعفاءُ الناس وسَقَطهم، وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين، فقال الله للجنة: أنت رحمتي، وقال للنار: أنت عذابي أصيب بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، قال: فأما الجنة فإن الله لا يظلم من خلقه أحداً، وإنه يُنشأ للنار من يشاء، فيُلقون فيها فتقول: هل من مزيد؟ ثلاثاً، حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ ويرد بعضها إلى بعض وتقول قط قط قط).

٣- وما رواه من حديث أبي هريرة مرفوعاً (٤٨٤٩)، وهو بلفظ: (يقال لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد، فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول: قط قط).

٤- وما رواه البخاري أيضاً من حديث أنس بن مالك (٤٨٤٨)، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: (يُلقى في النار وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه فتقول: قط قط).

٥- وما رواه البخاري (٦٦٦١) ومسلم (٢٨٤٨) عن طريق أنس أيضا، من قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول: قط قط وعزتك، ويُزْوَي بعضها إلى بعض).

٦- وما رواه البخاري (٧٣٨٤) - وبنحوه مسلم (٢٨٤٨) - من حديث أنس كذلك، وفيه قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تزال يلقى فيها - جهنم - وتقول: هل من مزيد حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قَدْ قَدْ، بعزتك وكرمك، ولا يزال الجنة تفضُل حتى يُنشِئَ الله لها خلقاً فيُسكنهم فضْل الجنة).

فظاهر الأحاديث أن هذا واقع لا محالة، وأن قول جهنم (هل من مزيد) هو: لطلب المزيد على ما دل عليه سياق الأحاديث، وجاء عن بعض السلف أنه استفهام إنكار مرادٌ به النفي، كأنها تقول: (ما بقي في موضع للزيادة)، وأن قولها: (قط قط)، يعني: حسبي حسبي، ووقع في بعض النسخ عن أبي ذر: (قطي قطي) بالإشباع، و(قطني) بزيادة نون مشبعة، وهي في بعض الروايات كما رأينا بالدال بدل الطاء (قد قد) وفي بعضها (قدني قدني)، وكلها بمعنى: يكفي، وقوله: (لا يظلمُ اللهُ من خلقه أحداً): إيذان بأن الجنة يقع امتلاؤها بمن ينشئُهم الله لأجل ملئها، وأما النار فلا يُنشئ لها خلقاً بل يُضَم بعضها إلى بعض فتصير ملأى ولا تحتمل مزيداً.

وطريق السلف - في معنى صفة القدم التي صرحت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بإيقاع فعل الله تعالى عليها بغير ما طريق، مرة بقوله: (يضع الرب تبارك وتعالى قدمه)، ومرة (يضع رب العزة فيها قدمه)، ومرة (يضع فيها رب العالمين قدمه)، وأضيفت في جميعها للضمير العائد عليه تعالى -: أنها تمر كما جاءت ولا يُتعرض لتأويلها، بل نجتنب التمثيل والتجسيم المفضيان إلى التأويل والتعطيل أو تفويض معناها، ونعتقد قدَمها واستحالة أن تُوهم النقص على الله تعالى أو توهم الجوارح كما يدعي الأشاعرة.

قال البيهقي في الأسماء والصفات ص ٤٩٦: "المتقدمون من أصحابنا لم يفسروا أمثال هذه، ولم يشتغلوا بتأويلها مع اعتقادهم أن الله تعالى واحد غير متبعض ولا ذي جارحة"، ثم ساق في هذا قول يحيى بن معين: "شهدت زكريا بن علي سأل وكيعا فقال: يا أبا سفيان، هذه الأحاديث

يعني: مثل (الكرسي موضع القدمين) ونحو هذا.. فقال وكيع: (أدركنا إسماعيل بن أبي خالد وسفيان ومسعراً يُحَدِّثون بهذه الأحاديث ولا يفسرون شيئاً)"، يعني: من جنس تفسيرات جهم وأشياعه من أهل الاعتزال والكلام.. وبناء على كل ما سبق فإن كل ما قيل من تأويلات من شأنها أن تُخرج هذه الصفة عن ظاهر معناها، هو من ترهات المتأولين وكل من تجرأوا على اتهام الصحابة ومن سار على دربهم من مثبتي التابعين وتابعيهم بالتجسيم، فضلاً عن أنه لا دليل عليه لا من كتاب ولا من سنة ولا من إجماع.

قرائن العقل في إثبات القدم له تعالى:

ومما يجب اعتقاده: معرفة أن مهمة العقل المسلم تجاه النقل، تصديقُ المنقول تصديقاً جازماً يبلغ العقل به حد اليقين إذا كان خبراً، وتنفيذه ما استطاع إذا كان أمراً، فلا يحل للعقل - الذي شهد شهادة الحق وعرف أن للإيمان شروطاً تتمثل في: العلم واليقين والإخلاص والصدق والمحبة والانقياد والقبول والموالاة في الله - أن يسير وراء عقل تحرر من كل هذا، أو يقلده في ادعاءاته أن الإسلام جاء ليجعل العقل أسيراً للنقل، كما لا يجوز له أن يردَّ دليلاً أو يعطل نصاً بحجة تعارضه مع العقل، أو بدعوى أن أدلة العقل يقينية قطعية بينما أدلة الشرع ظنية وغير قاطعة، أو بزعم أن في ذلك تغليباً لمصلحة أو مراعاةً لمقصد من مقاصد الشريعة.. إذ أين يقين العقل أو اعتبار المصلحة أو مراعاة مقاصد الشريعة في إهدار النصوص والابتعاد بالفطرة عن طريق الاتباع، لاسيما وأن أصحاب هذه المقولات من متكلمي الأشاعرة قد تراجعوا عنها وندموا عليها، على ما أوضحناه في كتابنا (سيراً على خطا الأشعري.. أئمة الخلف يتراجعون إلى ما تراجع إليه)؟!

كما يجب التذكير بأن الكلام عن صفات الله تعالى يجب أن يخضع للنقل، والنقل وحده دون العقل، وذلك - بالإضافة لما قدمنا - لأن العقل الصريح يقضي بأن صفات الله تعالى كـ (ذاته)، من شأنها ألا تُدرك بعقول البشر ولا أقيستهم، كونها من أمور الغيب السماعية التي استأثر الله بعلمها ولا يصح إيمان العبد إلا بتصديقها، وكون تصورها بالتالي والوقوف في كيفيتها فوق طاقة هذه العقول بأقيستها المنطقية، وبخاصة أن العقول تتفاوت، فما يجيزه أو يوجبه عقلٌ قد يحيله عقلٌ آخر، فضلاً عن أن من تأول أياً منها ليس عنده الدليل أو القرينة التي تثبت أن ما تأوله يرقى إلى درجة اليقين أو الصواب المحض، وأن من أثبت بعضها لدلالة العقل عليه ليس أمامه سوى أن يثبت ما استبعده أو تأوله منها، لدلالة العقل نفسه على أن ما لم يتأوله ولم يعطله ولم يُشبِّه فيه الخالق بالمخلوق ليس أولى بالإثبات مما تأوله وعطله بعد أن شبه ومثل وجسم، وأيضاً لدلالة النقل عليها جميعاً دون ما تفرقة، يضاف لذلك أن ما يقال عن ذاته تعالى يقال عن صفاته كون الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، وكما أنه ليس لذاته ذوات تشبه ذاته فإنه ليس لصفاته صفات تشبه صفاته، وأن صفات الله كلها صفات كمال وكل ما أوجب نقصاً أو حدوثاً فإنه تعالى منزه عنه لكونه سبحانه مستحقاً للكمال الذي لا غاية فوقه.

ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه ولافتقار المحدَث إلى محدِث ولوجوب وجوده تعالى بنفسه، وأن العقل الصريح لأجل كل ما ذكرنا لا يحيل ما جاء به النقل الصحيح يستوي في ذلك ما جاء في باب الصفات وما جاء في غيره من أمور السماع، وأنه ما دعا المتأول إلى تأويل ما تأوله من الصفات إلا غياب ذلك عنه واعتقاده الحدوث والتجسيم وتشبيه صفات الخالق بصفات المخلوقين، وقد أداه ذلك إلى أن يتلاعب بنصوص الكتاب والسنة ويسعى في تعطيلها ونسبة قائلها إلى التكلم بما ظاهره الضلال والإضلال، مع العلم أن على إثباتها جميعاً - من غير ما استثناء ودون ما تأويل أو إخراج لها عن ظاهرها -: صاحبَ الوحي رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام وتابعيهم وتابعي تابعيهم، وأنه يجب أن يسعنا في تصديق أخبار الصفات ما وسعهم، وأن كلمة السلف وإجماع

أهل السنة، على اعتقاد كل ذلك وشعارهم فيه: (أن كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك).

إجماع أئمة الهدى على إثبات صفة القدم لله تعالى:

من هذا المنطلق، كان إثبات وتصديق أئمة الهدى ولا يزال وسيظل إلى قيام الساعة - مهما شغب الشاغبون وأجلب المتكلمون بخيلهم ورجلهم - بصفة (القَدَم) لله تعالى، ونذكر من أقوالهم:

قول الإمام الحافظ أبي القاسم إسماعيل الأصبهاني (ت ٥٣٥)، في كتابه الجليل الشأن والمسمى بـ (الحجة في بيان المحجة)، فبعد أن ذكر ما ذكر من قرائن اللغة والعقل والنقل على رؤية الله تعالى واستوائه على عرشه، قال ٢/ ٢٧٥، ٢٧٩: "وكذلك القول فيما يضارع هذه الصفات.. كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يضع الجبار فيها قدمه)، وقوله: (إن أحدكم يأتي بصدقته فيضعها في كفّ الرحمن)، وقوله: (يضع السماوات على أصبع والأرض على أصبع)، وأمثال هذه الأحاديث، فإذا تدبره متدبر ولم يتعصب، بان له صحة ذلك وأن الإيمان به واجب وأن البحث عن كيفية ذلك باطل"، وبعد أن ذكر من القرائن على إثبات اليد والوجه أيضاً ما به تقام الحجة، قال: "وكذلك قوله: (حتى يضع الجبار فيها قدمه)، وقوله: (فيضعها في كف الرحمن)، فإن للقدم معان وللكف معان، وليس يحتمل الحديث شيئاً من ذلك إلا ما هو المعروف في كلام العرب، فهو معلوم بالحديث مجهول الكيفية.. وكذلك القول في جميع الصفات، يجب الإيمان به، ويُترك الخوض في تأويله وادراك كيفيته" ا.هـ.

ومما قاله بنفس المصدر (٢/ ٥٤٩): "أهل السنة يطلقون ما أطلق الله في كتابه وما أطلقه رسوله في سنته مثل: السمع والبصر والوجه والنفس والقدم والضحك من غير تكييف ولا تشبيه، ولا ينفون صفاته كما نفت الجهمية.. ولا نُعارض سنة النبي صلى الله عليه وسلم بالمعقول، لأن الدين إنما هو الانقياد والتسليم دون الرد إلى ما يوجبه العقل، لأن العقل: ما يؤدي إلى قبول السنة، فأما ما يؤدي إلى إبطالها: فهو جهل لا عقل" ا.هـ.

ومما قاله في الجزء الثاني أيضاً ص ٥٠٢ من نفس المصدر: "جميع آيات الصفات التي في القرآن والأخبار الصحاح التي نقلها أهل الحديث، واجب على جميع المسلمين أن يؤمنوا ويسلموا بها ويتركوا السؤال فيها وعنها لأن السؤال عن غوامضها بدعة، وذلك.. مثل النفس واليدين والسمع والبصر والكلام والاستحياء والدنو والأولية والآخرية والحياة والبقاء والتجلي والوجه والقَدَم والقهر والمكر، وغير ذلك مما ذكر الله من صفاته في كتابه وما ذكره رسول الله في أخباره"..

وكان الأصبهاني قد نقل بنفس الصفحة عن بعض علماء السنة - في موقف السلف من صفات الله تعالى الخبرية والفعلية - قوله: "حرام على الخلق أن يكيفوه وعلى الضمائر أن تضمر فيه غير المنقول، وحرام على النفوس أن تتفكر فيه وحرام على الفكر أن يدركه، وحرام على كل أحد أن يصفه تعالى إلا بما وصف به نفسه في كتابه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في أخباره الصحيحة عند أهل النقل والسلف المشهورين بالسنة المعروفين بالصدق والعدالة".

وهذا النص وما قبله فيما يبدو هو من كلام إمام الشافعية في وقته والذي إليه - على حد قول الذهبي - المنتهى في معرفة المذهب: أبي العباس بن سريج (ت ٣٠٦)، ولا يبعد أن يكون قد تأثر فيه بشيخه الإمام الشافعي، وتمامه كما في العلو للذهبي ص ١٥٢، ١٥٣ ومختصره ص ٢٢٦، ٢٢٧ واجتماع الجيوش لابن القيم ص ٦٢- ٦٤: "حرام على العقول أن تُمثّل الله سبحانه، وعلى الأوهام أن تَحُدَّه وعلى الظنون أن تَقطع وعلى الضمائر أن تُعمّق وعلى النفوس أن تفكر وعلى الأفكار أن تُحيط وعلى الألباب أن تصفه إلا بما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم..

وإلى لقاء آخر نستكمل الحديث.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الاستعداد للموت

الحَمْدُ لله، والصلاة والسلام على نبينا محمد صَلّى اللهُ عَلَيْه وَسَلّم.

أما بعد: فإن الموتَ هو الحقيقةُ التي لا يستطيع أحدٌ من الناس أن ينكرها، من أجل ذلك أحببتُ أن أُذكرَ نفسي وإخواني الكرام بوسائل الاستعداد للموت، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

إعداد/ صلاح نجيب الدق

الموت يأتي فجأة:

يجبُ علينا جميعاً أن نعلمَ أن الموتَ يأتي بغتةً، ولا يدري أحدٌ من الناس متى وأين وكيف سينتهي أجله، الذي كتبه الله تعالى.

قال سبحانه: (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ) (لقمان: ٣٤).

ولذا ينبغي على كل مُسلم أن يحرصَ على كتابة وصيته، وذلك بأن يُوصيَ أهله وأقاربه بتقوى الله عز وجل والحرص على طاعته، وذلك بأداء جميع العبادات على وجهها الصحيح، وعليه كذلك أن يكتب ما له وما عليه من الديون.

روى الشيخان عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضيَ الله عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ: مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصي فيه يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عنْدَهُ. (البخاري حديث ٢٧٣٨ ومسلم حديث ١٦٢٧).

قال الله تعالى (حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (المؤمنون:٩٩، ١٠٠).

وقال جل شأنه:(قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (الجمعة:٨).

روى البخاريُّ عَنْ مُجَاهد بن جبر، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ، رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ» (البخاري حديث: ٦٤١٦).

وسائل الاستعداد للموت:

وسائلُ الاستعداد للموت كثيرةٌ، ويمكنُ أن نُوجزَها في الأمُور الآتية:

أولاً: المحافظة على ما افترضه الله تعالى على المسلم:

يجبُ على المسلم أن يستعدَّ للموت بالمحافظة على أداء كل ما افترضه الله تعالى عليه، من الصلاة والزكاة والحج وصوم رمضان.

روى الشيخان عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَال رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ: بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَة أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ. (البخاري حديث ٨ ومسلم حديث ١٦).

وأمرنا الله تعالى باتباع نبينا محمد صلى الله عليه

وسلم في جميع الأمور، بقدر المستطاع، ولا يكلف الله تعالى نفسا إلا وسعها.

قال سبحانه: (فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (النساء: ٥٩).

وقال جلَّ شأنه: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا) (الأحزاب: ٣٦).

وقال تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الحشر: ٧).

ثانياً: الإكثار من ذكر الموت:

(١) روى الحاكمُ عَنْ أَنَس بْنِ مَالِك، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَلَا فَزُورُوهَا، فَإِنَّهُ يُرِقُّ الْقَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا». (حديث حسن) (أحكام الجنائز للألباني صـ٢٢٨) وقوله (هُجْراً) أي: الكلام الباطل المخالف لهدي النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

روى الترمذيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ» يَعْنِي الْمَوْتَ. (حديث حسن صحيح)(صحيح سنن الترمذي للألباني حديث ١٨٧٧).

(٢) قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: «مَنْ أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ قَلَّ حَسَدُهُ وَقَلَّ فَرَحُهُ» (مصنف ابن أبي شيبة جـ٧صـ١١٠ ـ رقم: ٣٤٥٨٣).

(٣) قَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: كَفَى بِالْمَوْتِ وَاعِظًا، وَكَفَى بِالْيَقِينِ غِنَى، وَكَفَى بِالْعِبَادَةِ شُغْلاً. (الزهد لأحمد ـ صـ١٤٥ رقم: ٩٨٤).

(٤) شَكَتْ امْرَأَةٌ إِلَى عَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قساوة في قلبها فقالت لها: أكثري من ذكر الموت، يَرِقّ قلبك. ففعلت، فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة. (العاقبة في ذكر الموت ـ لعبد الحق الأشبيلي صـ٤١).

علاج قسوة القلب:

علاجُ قسوة القلب يكون بأربعة أمور، وهي:

(١) الإقلاع عن المعصية، وحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكر والتخويف والترغيب، وأخبار الصالحين فإن ذلك مما يلين القلوب.

(٢) ذكر الموت. فالموت هادم اللذات ومفرق الجماعات وميتم البنين والبنات. قال العلماء: تذكر الموت يردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب فيها.

(٣) مشاهدة المحتضرين، فإن في النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته، ونزعاته، وتأمل صورته بعد مماته، ما يقطع عن النفوس لذاتها، ويطرد عن القلوب مسراتها، ويمنع الأجفان من النوم، والأبدان من الراحة، ويبعث على العمل، ويزيد في الاجتهاد والتعب في طاعة الله تعالى.

(٤) زيارة القبور. (التذكرة للقرطبي صـ١٣٣: ١٣٢).

ثالثاً: الاستعداد للموت بالتوبة الصادقة:

يجبُ على المسلم أن يستعدَ للموت بالتوبة الصادقة، والمحافظة على أداء الفرائض، واتباع سُنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في جميع الأقوال والأفعال.

قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التحريم: ٨).

قَالَ الإمامُ ابن كثير (رحمه الله): قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا) أَيْ: تَوْبَةً صَادِقَةً جَازِمَةً، تَمْحُو مَا قَبْلَهَا مِنَ السَّيِّئَاتِ وَتَلُمُّ شَعْثَ التَّائِبِ وَتَجْمَعُهُ، وَتَكُفُّهُ عَمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ الدَّنَاءَاتِ. (تفسير ابن كثير جـ١٤صـ ٦٠).

شروط التوبة الصادقة:

قال الإمام النووي (رحمه الله): قَالَ العلماءُ: التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فإنْ كَانَتِ المَعْصِيَةُ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى لاَ تَتَعلَّقُ بحقِّ آدَمِيٍّ، فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوطٍ:

أحَدُهَا: أنْ يُقلِعَ عَنِ المَعصِيَةِ.

والثَّانِي: أنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا.

والثَّالثُ: أنْ يَعْزِمَ أنْ لا يعودَ إِلَيْهَا أَبَداً.

فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ. وإنْ كَانَتِ المَعْصِيةُ تَتَعَلقُ بآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أرْبَعَةٌ: هذِهِ الثَّلاثَةُ، والرَّابعُ: أنْ يَبْرَأ مِنْ حَقِّ صَاحِبِهَا، فَإِنْ كَانَتْ مالاً أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْهِ، وإنْ كَانَت حَدَّ قَذْفٍ ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وإنْ كَانْت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا. ويجِبُ أنْ يَتُوبَ مِنْ جميعِ الذُّنُوبِ، فَإِنْ تَابَ مِنْ بَعْضِهَا صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عِنْدَ أهْلِ الحَقِّ مِنْ ذلِكَ الذَّنْبِ، وبَقِيَ عَلَيهِ البَاقِي. (رياض الصالحين للنووي صـ ٢٥: ٢٤).

رابعاً: حسن الظن بالله عند الموت:

روى مسلمٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (مسلم حديث: ٢٨٧٧).

قال الإمامُ النووي (رحمه الله): قَالَ الْعُلَمَاءُ هَذَا الحديث تَحْذِيرٌ مِنَ الْقُنُوطِ وَحَثٌّ عَلَى الرَّجَاءِ عِنْدَ الْخَاتِمَةِ. (مسلم بشرح النووي جـ١٧صـ٢٠٩).

روى أحمدُ عَنْ حَيَّانَ قال: دَخَلْتُ مَعَ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ عَلَى أَبِي الْأَسْوَدِ الْجُرَشِيِّ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَجَلَسَ، فَقَالَ لَهُ وَاثِلَةُ: وَاحِدَةٌ، أَسْأَلُكَ عَنْهَا؟ قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: كَيْفَ ظَنُّكَ بِرَبِّكَ؟ قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ: وَأَشَارَ بِرَأْسِهِ، أَيْ حَسَنٌ قَالَ وَاثِلَةُ: أَبْشِرْ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ. (حديث صحيح) (مسند أحمد جـ ٢٥صـ٣٩٨ حديث: ١٦٠١٦).

روى ابنُ ماجه عَنْ أنس بن مالك، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» قَالَ: أَرْجُو اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ» (حديث حسن) (صحيح سنن ابن ماجه للألباني حديث ٣٤٣٦).

قال الإمامُ القرطبي (رحمه الله): حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى، ينبغي أن يكون أغلب على العبد عند الموت منه في حال الصحة، وهو أن الله تعالى يرحمه ويتجاوز عنه ويغفر له وينبغي لجلسائه أن يذكروه بذلك حتى يدخل في قوله تعالى: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء». (التذكرة للقرطبي ص: ١٧٤).

خامساً: الاستعداد للموت بذكر عذاب القبر ونعيمه

والبعث والحشر، والعرق، والمرور على الصراط، وصحيفة الأعمال، والميزان، والحوض والشفاعة، والجنة والنار، وما أعد الله لأهلهما، والوقوف للحساب أمام الله تعالى.

قال الله تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) (إبراهيم: ٢٧)، روى النسائيُّ عَنْ الْبَرَاءِ قَالَ: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) قَالَ: نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ. (حديث صحيح) (صحيح النسائي للألباني جـ٢صـ٧٤).

قال الله تعالى: (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ) (الحاقة: ١٨: ٣٦).

قال الله تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) (الأنبياء: ٤٧)، وقال جَلَّ شأنه: (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ) (القارعة: ٦: ١١).

قال الله تعالى: (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (يس: ٦٥).

روى الترمذيُّ عن الْمِقْدَادِ بن الأسود أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُدْنِيَتْ الشَّمْسُ مِنْ الْعِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قِيدَ مِيلٍ أَوْ اثْنَيْنِ، قَالَ سُلَيْمٌ: لَا أَدْرِي أَيَّ الْمِيلَيْنِ عَنَى أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ أَمْ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ، قَالَ فَتَصْهَرُهُمْ الشَّمْسُ فَيَكُونُونَ فِي الْعَرَقِ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى عَقِبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهُ إِلَى حِقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ إِلْجَامًا فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ أَيْ يُلْجِمُهُ إِلْجَامًا. (حديث صحيح) (صحيح الترمذي للألباني حديث ١٩٧٣).

روى البخاريُّ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَأَقُولُ إِنَّهُمْ مِنِّي فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي. (البخاري حديث ٦٥٨٣/٦٥٨٤).

قال الله تعالى: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) (الأنعام: ٩٤).

روى الشيخان عَنْ عَدِيّ بْن حَاتم قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: مَا منْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ منْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ منْ عَمَله، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ منْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْه فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تلْقَاءَ وَجْهه، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشقِّ تَمْرَة. (البخاري حديث ٦٥٣٩ ومسلم حديث ١٠١٦).

أقوال السلف الصالح عند الاحتضار:

(١) أبو بكر الصديق:

لَمَّا احْتُضرَ أَبُو بَكْر الصِّدِّيقُ (رَضيَ اللهُ عَنْهُ) قَالَتْ عَائشَةُ:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْني الثَّرَاءُ عَن الْفَتَى
إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بهَا الصَّدْرُ.

فَكَشَفَ أَبُو بَكْر، (رَضيَ اللهُ عَنْهُ)، عَنْ وَجْهه وَقَالَ: لَيْسَ كَذَلكَ يَا بُنَيَّةُ، وَلَكنْ قُولي: (وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ) (ق: ١٩) (العاقبة في ذكر الموت لعبد الحق الأشبيلي صـ١٢٢).

الحَشْرَجَةُ: الغَرْغَرة عنْدَ المَوْت، وتَرَدُّدُ النَّفَس. (النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير جـ١ صـ٣٨٩).

(٢) عمر بن الخطاب:

قَالَ عَبْدُ اللَّه بنُ عُمَرَ بن الْخَطَّاب (رَضيَ اللهُ عَنْهُ)، كَانَ رَأْسُ عُمَرَ في حجْري في مَرَضه الَّذي مَاتَ فيه، فَقَالَ لي: ضَعْ خَدِّي عَلَى الْأَرْض، فَقُلْتُ: وَمَا كَانَ عَلَيْكَ كَانَ في حجْري أَوْ عَلَى الْأَرْض؟ فَقَالَ: ضَعْهُ لَا أُمَّ لَكَ، فَوَضَعْتُهُ، فَقَالَ: وَيْلي، وَيْلُ لأُمِّي إِنْ لَمْ يَرْحَمْني رَبِّي (المحتضرين لابن أبي الدنيا صـ٥٤رقم: ٤٢).

وقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب(رَضيَ اللهُ عَنْهُ) أيضاً لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ: «لَوْ أَنَّ لي مَا عَلَى الْأَرْض لَافْتَدَيْتُ به منْ هَوْل الْمُطَّلَع» (المحتضرين لابن أبي الدنيا صـ٥٥رقم: ٤٣).

(٣) عثمان بن عفان:

لما احْتُضرَ عُثْمَان بن عَفَّان (رَضي الله عَنهُ) جعل يَقُولُ وَدَمه يسيل: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كنت منَ الظَّالمينَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أستعين بكَ على أموري وَأَسْأَلك الصَّبْر على بلائي. (العاقبة في ذكر الموت لعبد الحق الأشبيلي صـ١٢٣).

(٤) قال محمد بن علي بن أبي طالب: إن عليا لَمَّا ضُربَ أَوْصَى بَنيه، ثُمَّ لَمْ يَنْطقْ إِلَّا بـ «لا إله إلا الله» حَتَّى قَبَضَهُ الله. (المحتضرين لابن أبي الدنيا صـ٦١رقم: ٥٣).

(٥) مُعَاذُ بْنُ جَبَل:

لَمَّا احْتُضرَ مُعَاذُ بْنُ جَبَل(رَضي الله عَنهُ)، جَعَلَ يَقُولُ: أَعُوذُ بالله منْ لَيْلَة صَبَاحُهَا النَّارُ، مَرْحَبًا بالْمَوْت مَرْحَبًا زَائرٌ مُغَبٌّ حَبيبٌ جَاءَ عَلَى فَاقَة، اللهم إني قد كُنْتُ أَخَافُكَ وَأَنَا الْيَوْمَ أَرْجُوكَ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أُحبُّ الدُّنْيَا وَطُولَ الْبَقَاء فيهَا لكَرْي الْأَنْهَار وَلَا لغَرْس الْأَشْجَار، وَلَكنْ لظَمَأ الْهَوَاجر وَمُكَابَدَة السَّاعَات وَمُزَاحَمَة الْعُلَمَاء بالرُّكَب عنْدَ حلَق الذِّكْر. (التبصرة لابن الجوزي صـ٢١٥).

(٦) أبو الدرداء:

لَمَّا احْتُضرَ أَبُو الدَّرْدَاء(رَضي الله عَنهُ)، جَعَلَ يَقُولُ: أَلَا رَجُلٌ يَعْمَلُ لمثْل مَصْرَعي هَذَا؟ أَلَا رَجُلٌ يَعْمَلُ لمثْل سَاعَتي هَذه، أَلَا رَجُلٌ يَعْمَلُ لمثْل يَوْمي هَذَا! وَبَكَى. فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ: تَبْكي وَقَدْ صَاحَبْتَ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: ومالي لا أبكي ولا أدري علام أَهْجُمُ منْ ذُنُوبي. (التبصرة لابن الجوزي صـ٢١٦).

(٧) أبو هريرة:

لَمَّا احْتُضرَ أَبُو هُرَيْرَةَ (رَضي الله عَنهُ)، بَكَى، فَقيلَ لَهُ: وَمَا يُبْكيكَ؟ فَقَالَ: بُعْدُ الْمَفَازَة (أي بُعد السفر الشاق) وَقلَّةُ الزَّاد، وَعَقَبَةٌ كَئُودٌ، الْمَهْبطُ منْهَا إِلَى الْجَنَّة أَوْ إِلَى النَّار. (التبصرة لابن الجوزي صـ٢١٦).

(٨) حذيفة بن اليمان:

لما حضرت حُذَيْفَةَ بن الْيَمَان(رَضي الله عَنهُ)، الْوَفَاةُ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي كنت أخافك وَأنا الْيَوْم أرجوك، اللَّهُمَّ إِنَّك تعلم أَنِّي لم أكن أحب الْبَقَاء في الدُّنْيَا لجري الْأَنْهَار وَلَا لغرس الْأَشْجَار وَلَكن لظمأ الهواجر وَقيام اللَّيْل ومكابدة السَّاعَات ومزاحمة الْعلمَاء في حلق الذّكر، وَلما اشْتَدَّ به النزع جعل كلما أَفَاق من غمرة فتح عَيْنَيْه وَقَالَ يَا رب شدّ شداتك واخنق خنقاتك فوعزتك إِنَّك لتعلم أَنِّي أحبك. (العاقبة في ذكر الموت لعبد الحق الأشبيلي صـ١٢٦).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحلقة الثانية

الرد على شبهة عدم حاجة الناس لأهل الذكر



إعداد/ المستشار/ أحمد السيد علي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعدُ:

فنكمل حديثنا عن الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام لصرف الناس عن دينهم، وتحدثنا في العدد السابق عن محاولاتهم الطعن في السنة النبوية، والاكتفاء بالقرآن الكريم، وأنه لا حاجة للمسلمين لأهل الذكر، وأن لكل مسلم أن يرجع إلى القرآن فيفتي نفسه بنفسه، ونكمل الرد على هؤلاء في هذا العدد، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

ثانيًا: ذكر القرآن والسنة للعلم، والعلماء، والفقهاء، دليل على حاجة الناس لهم:

فقد ورد لفظ (العلم) في القرآن الكريم بتصريفاته المختلفة أكثر من سبعمائة وخمسين مرة، مشفوعاً معظمها بالدعوى إلى التدبر في آيات الله، كما في قوله تعالى: «كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (فصلت:٣)، والتفكر في آياته المنظورة، كما في قوله سبحانه: «وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (الأنعام: ٩٧)، غير أن لفظ (العلم) ورد في مواضع من القرآن على معان غير معنى العلم بالشيء، ومعرفته على حقيقته، ومن هذه المعاني، ورد العلم بمعنى (الدين)، ومنه قوله سبحانه: «وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ» (البقرة:١٢٠)، قال أبو حيان: أي: من الدين. وجعله علْماً؛ لأنه معلوم بالبراهين الصحيحة. وقال الرازي: أي: من الدين المعلوم صحته بالدلائل القاطعة.

ومن ثم يتضح زيغ وضلال هؤلاء في دعواهم، عدم وجود ما يسمى بعلوم الدين -من فقه وأصوله، وحديث وعلومه، وقرآن وتفسيره، وعقيدة،

وغيرها من أصناف العلوم الشرعية- والواقع أيضا يكذبهم، فلا يوجد شيء من أمور الدنيا، إلا وقد وضع له أهله علما يضبطه، ويهدي الناس إليه، من طب وهندسة، وفلك، ورياضة بأنواعها، بل لم تخل المفاسد من علم يضبطها لأصحابها، فكيف يعترف هؤلاء المضلون بهذه العلوم المتنوعة، ويحترمون أهل الاختصاص فيها، وينفون ذلك عن علم الشرع المطهر، ويستهزئون بأهله، إلا لتحقيق غرضهم الخبيث من صرف الناس عنه؟!

كما أن القرآن قد بين أن لبني إسرائيل علماء، فقال تعالى: «أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ» (الشعراء: ١٩٧)، وشريعة الإسلام أكبر في تشريعاتها من كافة الشرائع السابقة فحاجتها للعلماء الربانيين أهل الذكر - بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم - أوكد من باب أولى، ولذلك مدح الله من أوصله علمه لخشيته سبحانه فقال تعالى: «إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟» (فاطر: ٢٨).

وبذهابهم يذهب العلم، ويفشو الجهل والضلال، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «إن اللهَ لا يقبضُ العلمَ انتزاعًا ينتزعُهُ من العبادِ، ولكن يقبضُ العلمَ بقبضِ العلماءِ، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتخذَ الناسُ رُؤوسًا جُهَّالًا، فسُئلوا، فأفْتَوا بغيرِ علم، فضلوا وأضلوا» (رواه البخاري)، فلو كان القرآن بيانا بنفسه، ولا يحتاج للعلماء الذين يبينونه للناس، فلماذا يذهب العلم بذهابهم، ولماذا يفشو الجهل بقبضهم، بالرغم من بقائه بعدهم؟!!

وقد نهى الله المسلمين عن خروجهم كلهم للجهاد، وأوجب عليهم قيام بعضهم بالتفقه في الدين، للقيام بواجب تبليغه، وتبيينه للأمة، فقال تعالى: «۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (التوبة ١٢٢)، فدل ذلك على أن المسلمين ينقسمون إلى قسمين: أحدهما: فقيه في الدين مبين له، والآخر: غير فقيه فيه يحتاج إلى الأول ليبينه له، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم أمته على التفقه في الدين بقوله: «مَن يُرِدِ الله به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ» (رواه البخاري).

كما بين سبحانه أن استنباط الأحكام الشرعية ليس لكل أحد من الناس، وإنما هو لمن وصل إلى رتبة الاجتهاد منهم، وفي هذا دليل على أن الناس يحتاجون إلى من يبين لهم دينهم، وأن بيانهم هذا داخل تحت قوله تعالى «هذا بيان للناس»، قال تعالى: «وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا» (النساء ٨٣)، ولذلك أمر الله بسؤالهم، والرجوع إليهم لبيان ما أشكل عليهم، فقال تعالى: «فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (النحل ٤٣)، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فتشمل جميع أهل الذكر في جميع العلوم، ومن جميع الأمم، وليس بحصرهم في علماء أهل الكتاب السابقين على الإسلام، كما زعم هؤلاء.

ثالثا: الخلط بين الواسطة في العلم والواسطة في العبادة:

وقد أشكل على هؤلاء الفرق بين الواسطة في العلم، والواسطة في العبادة، فنفوا، وردوا حاجة الناس إلى العلماء كواسطة بينهم وبين تعلم الدين، قياسا على استغنائهم عن الواسطة في العبادة، بينهم وبين الله، وهذا قياس فاسد، فالعلم يحتاج إلى معلم، ينقل العلم إلى الناس، حتى الأنبياء عليهم السلام، علمهم جبريل عليه السلام، الوحي، قال تعالى حاكيا عن نبيه صلى الله عليه وسلم: «وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ③ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ» (النجم ١ - ٥).

قال الشنقيطي - رحمه الله - في «أضواء البيان»: «المراد بشديد القوى في هذه الآية هو جبريل عليه السلام، والمعنى أنه - صلى الله عليه وسلم - علمه هذا الوحي ملك شديد القوى هو جبريل. وهذه الآية الكريمة قد تضمنت أمرين: أحدهما: أن هذا الوحي الذي من أعظمه هذا القرآن العظيم، علمه جبريل النبي - صلى الله عليه وسلم - بأمر من الله. والثاني: أن جبريل شديد

القوة. اهـ.

ولم يعلمهم بشر قال تعالى: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (النحل ١٠٣)، ومن ثم فما هم دون الأنبياء يحتاجون إلى من يعلمهم، ولا يمكن لهم أن يتعلموا من تلقاء أنفسهم، فالناس ما بين عالم ومتعلم، وعلم الشرع من هذه العلوم التي تحتاج إلى من يتعلمها، ثم يعلمها للناس، قال تعالى: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (التوبة ١٢٢)، وعن عثمان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خيرُكم مَن تعلَّم القرآنَ وعلَّمه» (رواه البخاري).

وروى أبو نعيم في الحلية عن كميل بن زياد قال: «أخذ علي بن أبي طالب بيدي، فأخرجني إلى ناحية الجبّانة، فلما أصحرنا جلس ثم تنفس ثم قال: يا كميل بن زياد القلوب أوعية فخيرها أوعاها، احفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالمٌ ربانيّ، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق».

أما العبادة فلا تحتاج إلى واسطة بين العبد وبين ربه، فالله لم يجعل بينه وبين عباده في عبادته واسطة من خلقه، بل الواجب على العباد أن يتقربوا إليه وحده من غير واسطة فهو المستحق لجميع أنواع العبادة، من الخوف والرجاء والحب والصلاة والزكاة وغيرها من العبادات القلبية والبدنية، قال تعالى: «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» (الأنعام: ١٦٢-١٦٣)، وقال: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» (البقرة ١٨٦)، فلم يقل سبحانه وتعالى لنبيه «قل إني قريب»، وإنما قال «فإني قريب» لينفي الواسطة بينه وبين عباده، حال عبادتهم له، حتى ولو كانت تلك الواسطة، ملكًا مرسلاً، أو نبيًا مقربًا، فهؤلاء أشكل عليهم الفرق بين الواسطة في العبادة، والواسطة في العلم، فنفوا الثانية، اعتمادا على نفي الأولى.

رابعا: سؤال الصحابة ينفي أنه مبين بنفسه:

ومما يؤيد القول بأن الناس محتاجون لمن يبين لهم ما أشكل عليهم، وأن هذا البيان لا ينفي عن القرآن أنه «بيان للناس» ما ثبت عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من سؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم عما أشكل عليهم من آيات القرآن، فلو كان مبينا بنفسه - في كل ما جاء به - لما احتاجوا إلى سؤاله، ومن هذا:

١- عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لما نزلت هذه الآيةُ: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ». شقَّ ذلك على أصحابِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقالوا: أيُّنا لم يَظلِمْ نفسَه؟ فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: (ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمانُ لابنه: « يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» (رواه البخاري).

٢- عن عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال: «لما نزلت: «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ» » (البقرة ١٨٧). قال له عديُّ بنُ حاتم: يا رسولَ الله! إني أجعلُ تحت وسادتي عقالَين: عقالًا أبيضَ وعقالًا أسودَ. أعرفُ الليلَ من النهار. فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّ وسادَك لعريضٌ. إنما هو سوادُ الليلِ وبياضُ النهار» (رواه مسلم).

٣- عنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ) فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا» فَقَالَ: (لَيْسَ ذَاكَ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكَ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ» (رواه البخاري).

٤- عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن هذه الآيةِ (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ) قالت عائشةُ: أهُمُ الَّذينَ يشربونَ الخمرَ ويسرقونَ؟ قال: لا يا بنتَ الصِّدِّيقِ، ولكنَّهمُ الَّذينَ يصومونَ ويصلُّونَ ويتصدَّقونَ، وهُم يخافونَ أن لا تُقبَلَ منهُم أولئكَ

يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ» (رواه الترمذي وصححه الألباني).

خامسًا: حاجة الناس لمن يبين لهم لبعدهم عن عهد النبوة:

فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن اختلاس العلم، فعن أبي الدَّرْدَاءِ قَالَ: «كنَّا مع رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم- فشخصَ ببصرِه إلى السَّماءِ ثمَّ قالَ: «هذا أوانُ يُختَلَسُ العلمُ منَ النَّاسِ حتَّى لا يقدِروا منهُ على شيءٍ». فقالَ زيادُ بنُ لَبيدٍ الأنصاريُّ: كيفَ يُختَلَسُ العلمُ منَّا وقد قرأنا القرآنَ فواللَّهِ لنَقرأنَّهُ ولنُقرِئنَّهُ نساءَنا وأبناءَنا؟ فقالَ: «ثَكِلَتكَ أمُّكَ يا زيادُ إن كُنتُ لأعدُّكَ من فُقَهاءِ أهلِ المدينةِ، هذهِ التَّوراةُ والإنجيلُ عندَ اليَهودِ والنَّصارَى فماذا تُغني عَنهم؟» قالَ جُبَيرٌ: فلقيتُ عُبادةَ بنَ الصَّامتِ، قلتُ: ألا تسمَعُ إلى ما يقولُ أخوكَ أبو الدَّرداءِ؟ فأخبَرتُهُ بالَّذي قالَهُ أبو الدَّرداءِ، قالَ: صدقَ أبو الدَّرداءِ إن شئتَ لأحدِّثنَّكَ بأوَّلِ علمٍ يُرفعُ منَ النَّاسِ الخشوعُ يوشِكُ أن تدخُلَ مَسجِدَ جماعةٍ فلا ترَى فيهِ رجلًا خاشعًا» (رواه الترمذي وصححه الألباني).

فلملازمة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم، لم يكن لهم - رضوان الله عليهم - حاجة لما يسمى بعلوم الآلة، - التي تعين على فهم الدين - لامتلاكهم لها آنذاك - وإن لم تكن مدونة في كتب - ومع بُعد الناس عن عهد النبوة الأولى ظهرت الحاجة إليها، فلم يكن الصحابة محتاجين لعلوم اللغة، لفهم القرآن والسنة، فهم أهلها، فلما تغيرت ألسن الناس بدخول العجم - غير العرب - إلى الإسلام، احتاجوا إلى من يضبط لهم لغتهم فظهرت علوم اللغة، ولم يكن لهم حاجة إلى علم الحديث، لسماعه مباشرة من النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن لم يسمع مباشرة، طلب من غيره أن يأتي بشاهدين على صحة روايته، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كنا في مجلس عند أُبيِّ بن كعب. فأتى أبو موسى الأشعريُّ مُغضَبًا حتى وقف. فقال: أنشدُكمُ اللهَ! هل سمع أحدٌ منكم رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقول: (الاستئذانُ ثلاثٌ. فإن أُذنَ لك. وإلا فارجعْ)؟ قال أُبيٌّ: وما ذاك؟ قال: استأذنتُ على عمرَ بنِ الخطابِ أمسَ ثلاثَ مرات. فلم يُؤذَنْ لي فرجعتُ. ثم جئتُه اليومَ فدخلتُ عليه. فأخبرتُه أني جئتُ أمسَ فسلمتُ ثلاثًا. ثم انصرفتُ. قال: قد سمعناك ونحن حينئذٍ على شُغلٍ. فلو ما استأذنتُ حتى يُؤذَنَ لك؟ قال: استأذنتُ، كما سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ. قال: فواللهِ! لأوجِعَنَّ ظهرَك وبطنَك. أو لتأتينَّ بمن يشهدُ لك على هذا. فقال أُبيُّ بنُ كعبٍ: فواللهِ! لا يقوم معك إلا أحدثُنا سنًّا. قم. يا أبا سعيدٍ! فقمتُ حتى أتيتُ عمرَ. فقلتُ: قد سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقولُ هذا» (رواه مسلم).

ولظهور بعض الكذابين الذين كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوضعوا بعض الأحاديث المدسوسة عليه، ظهر علم الحديث الذي وضع ضوابط للناس للتمييز ما بين الصحيح والسقيم، ولعدم علم الناس بالمكي والمدني، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ، ظهرت علوم، القرآن، ثم ظهرت علوم، أصول الفقه، والقواعد الفقهية، وغيرها، وأنشأت الجامعات التي عُنيت بهذه العلوم لإخراج المتخصصين فيها، امتثالاً لقوله تعالى: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (التوبة ١٢٢).

ومن ثم يتضح حاجة الناس الآن لأهل العلم، المتخصصين أكثر من حاجتهم للطعام، والماء، والهواء، فحاجتهم للعلم، والعمل به تحييهم في الدنيا والآخرة، وحاجتهم للطعام وغيره تحييهم في الدنيا فقط، ويتضح تهاوي هذه الشبهة التي أثارها أعداء الدين، لعزل الناس عن علمائهم، وتعطيل العمل بالكتاب والسنة، فليحذر الناس هؤلاء المضلين، حتى لا يقعوا فيما نهى الله تعالى عنه بقوله سبحانه: «وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ» (الأنعام ١٢١).

والله الموفق.

من هم الشهداء؟

إعداد/ صلاح عبد الخالق



- الشَّهِيد: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ حَيّ ؛ لأَنَّ أَرْوَاحهمْ شَهِدَتْ دَار السَّلَام. ولأَنَّ اللَّه تَعَالَى وَمَلَائِكَته عَلَيْهِمْ السَّلَام يَشْهَدُونَ لَهُ بِالْجَنَّةِ. فَمَعْنَى شَهِيد مَشْهُود لَهُ. وَقِيلَ: سُمِّيَ شَهِيدًا لأَنَّهُ يَشْهَد عِنْد خُرُوج رُوحه مَا لَهُ مِنْ الثَّوَاب وَالْكَرَامَة وَقِيلَ: لأَنَّ مَلَائِكَة الرَّحْمَة يَشْهَدُونَهُ فَيَأْخُذُونَ رُوحه وَقِيلَ: لأَنَّهُ شُهِدَ لَهُ الْإِيمَان وَخَاتِمَة الْخَيْر بِظَاهِرِ حَاله. (شرح النووي: ١/٢٦٢).

أنواع الشهداء:

شهيد المعركة:

- هو الذي يُقتل في قتال ضد الكفار مُقبلاً غير مُدبر لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، دُون غرض من أغراض الدنيا.

١- عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّه عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» صحيح البخاري (٢٨١٠).

٢- عَنْ أَبِي قَتَادَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالْإِيمَانَ بِاللَّهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تُكَفِّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ، إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ، إِلَّا الدَّيْنَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِي ذَلِكَ» صحيح مسلم (١٨٨٥).

حُكمه: حُكم الشُّهداء في ثواب الآخرة وفي أحكام الدُّنيا:

١- لا يُغَسَّل: قال الألباني: لا يشرع غسل الشهيد قتيل المعركة، ولو اتفق أنه كان جنبا، وفي ذلك أحاديث منها» عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ادْفِنُوهُمْ فِي دِمَائِهِمْ» - يَعْنِي يَوْمَ أُحُدٍ - وَلَمْ يُغَسِّلْهُمْ. صحيح البخاري (١٣٤٦) (وفي رواية) فقال: أنا شهيد على هؤلاء، لفوهم في دمائهم، فإنه ليس جريح يجرح (في الله) إلا جاء وجرحه يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك « أحكام الجنائز (١/٥٤).

٢- حكم الصلاة على الشهيد: الشهداء الذين قُتلوا أو

ماتوا في المعركة في سبيل الله الإمام مُخيّر فيهم، إن شاء صلى عليهم، وإن شاء ترك، والصلاة أفضل. موسوعة الفقه الإسلامي (٢/٦٧٣).

شهيد الآخرة:

شَهيد في الثَّواب دُون أَحْكَام الدُّنْيَا وَهُو المَبْطُون، وَالمطْعُون، وَصَاحِب الهَدْم، وَمَنْ قتل دُونَ مَاله، وَغَيْرهمْ مِمَّنْ جَاءَتْ الأَحَادِيث الصَّحِيحَة بِتَسْمِيَته شَهِيدًا فَهَذَا يُغَسَّل وَيُصَلَّى عَلَيْه وَلَهُ في الآخِرَة ثَوَاب الشُّهَدَاء. (شرح النووي على مسلم: ١/٢٦٢).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَنْ قُتِلَ في سَبِيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: «إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ»، قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَنْ قُتِلَ في سَبِيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ في سَبِيلِ الله فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ في الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ في الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ» صحيح مسلم (١٩١٥).

- قَالَ الْعُلَمَاء: وَإِنَّمَا كَانَتْ هَذِهِ الْمَوْتَات شَهَادَة بِتَفَضُّل الله تَعَالَى بِسَبَب شِدَّتهَا وَكَثْرَة أَلَمهَا. (شرح النووي: ٦/٣٩٧).

- قال ابن التين: هذه كلها ميتات فيها شدة تفضل الله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن جعلها تمحيصا لذنوبهم وزيادة في أجورهم يبلغهم بها مراتب الشهداء. (فتح الباري: ٦/٤٤).

هيا بنا نحاول أن نطوف حول بعض شهداء الآخرة لكثرة انتشارها في الآونة الأخيرة:

١- من مات بسبب مرض الطاعون شهيد:

-عَن أَنَس بْن مَالِك رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم: «الطَّاعُونُ شَهَادَةٌ لِكُلِّ مُسْلِم» صحيح البخاري (٥٧٣٢) وصحيح مسلم (١٩١٦).

أي أن في الإصابة بالطاعون ثواباً عظيماً يُضاهي ثواب الشهادة، وأجرها لكل من يُصاب به من المسلمين إذا صبر واحتسب ورضي بقضاء الله. (منار القاري: ٥/٢٢٦)

- خطورة الطاعون وكونه من الأمراض الخبيثة المعدية، وكان يسمى بالموت الأسود وتحصل الإصابة به بواسطة البرغوث حيث يتغذى من فأر مصاب فيمتص دمه الملوث بالبكتيريا، فيلدغ الإنسان ويقذف فيه من ذلك الدم فتنتشر البكتيريا في دمه ويصاب بالطاعون. منار القاري (٥/٢٢٥).

٢- من مات بسبب بطنه:

أ- فهو شهيد: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم قَالَ: «المَبْطُونُ شَهِيدٌ» البخاري (٥٧٣٣).

- أَمَّا (الْمَبْطُون) فَهُوَ صَاحِب دَاء الْبَطْن، وَهُوَ الْإِسْهَال: وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي بِهِ الِاسْتِسْقَاء وَانْتِفَاخ الْبَطْن، وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي تَشْتَكِي بَطْنه، وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يَمُوت بِدَاءِ بَطْنه مُطْلَقًا. شرح النووي (٦/٣٩٧) - المبطون أي: الذي يموت بسبب انتفاخ البطن والسرة. الذي هو ناتج عن الكبد الوبائي، تلف الكبد وانتفاخ البطن. (البدعة وأثرها في محنة المسلمين: ٤/٥).

- المبطون: أجمع غالب العلماء أنها تشمل كل أمراض البطن المؤدية إلى الموت من الإسهال حتى السرطان، وأنتم تدرون ما في البطن من أجهزة وليس جهازا واحدا! (أرشيف ملتقى أهل الحديث ٢(١٨/٢٢٢).

ب- لا يُعذب في قبره: عَبْدَ الله بْنَ يَسَار، قَالَ: رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْه وَسَلَّم: «مَنْ يَقْتُلْهُ بَطْنُهُ، فَلَنْ يُعَذَّبَ في قَبْرِه» سنن النسائي(٢٠٥٢) سنن الترمذي (١٠٦٤) وصححه الألباني.

- هذا فيه بشارة للإنسان الذي يمرض بمرض من الأمراض الباطنة، -أي: التي تأتي له في بطنه فينتفخ بطنه ويتألم حتى يموت على ذلك، فهذا لا يعذب في قبره، فهذا من علامات حسن الخاتمة أيضا. شرح رياض الصالحين - حطيبة (١٣٩/٨٨)

-(لم يُعذب في قبره) لأنه لشدته كان كفارة لسيئاته. تحفة الأحوذي(١٤٧/٤).

- وهذا يحمل من أصيب بداء البطن أن يصبر ولا يجزع ويحتسب الأجر عند الله، وأن يحتسبه أهله.

- عن جابر بن عتيك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تعدون الشهادة؟» قالوا: القتل في سبيل الله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغرق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، وصاحب الحريق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد والمرأة تموت بجمع شهيد» سنن أبي داود (٣١١١)، وسنن النسائي (١٨٤٦) وصححه الألباني.

- في هذا الحديث بعض أسباب الموت التي في حكم الشهادة في سبيل الله تعالى والتي منها:

٣- صاحب ذات الجنب شهيد:

أ- (وصاحب ذات الجنب) وهي قرحة أو قروح تصيب الإنسان داخل جنبه ثم تفتح ويسكن الوجع وذلك وقت الهلاك، ومن علاماتها الوجع تحت الأضلاع وضيق النفس مع ملازمة الحمى والسعال وهي في النساء أكثر. عون المعبود (٢٦٢/٨).

ب- الموت بذات الجنب: مرض يكون في أضلاع الإنسان كأنه خراريج داخلية في أضلاعه، فهو كالورم يعرض في الغشاء المبطن لأضلاع صدر الإنسان فيموت بسببه. شرح رياض الصالحين - حطيبة(١٣٩/٨٨).

٤- الغريق شهيد:

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ومن غرق فهو شهيد» مسلم (١٩١٥).

- اختلف أهل العلم فيمن ركب البحر عاصيا بركوبه، كأن كان الغالب فيه عدم السلامة، أو ركبه لإتيان معصية من المعاصي، فغرق هل يعد شهيدا أم لا؟ على قولين. فمنهم من قال: إنه لا يعد شهيدا، ومنهم من استظهر أنه شهيد ما لم يمت وهو يقارف المعصية. موقع الإسلام سؤال وجواب (٤٥٦١/٥).

٥- صاحب الهدم شهيد:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله» صحيح البخاري (٢٨٢٩).

حكم إطلاق لفظ الشهيد على المتوفى بسبب حادث سيارة؟

يرجى لهم الشهادة؛ لأنهم من جنس صاحب الهدم صاحب الهدم شهيد، وصاحب حادث بالسيارة الذي يصدم، أو تنقلب به السيارة حتى يموت هو من جنس صاحب الهدم، نرجو له الشهادة. فتاوى نور على الدرب (٤٧٠/١٣).

٦- الحريق شهيد:

- عن جابر بن عتيك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وصاحب الحريق شهيد»، سنن أبي داود (٣١١١)، (وصاحب الحريق) أي المحرق وهو الذي يموت بالحرق. عون المعبود (٢٦٢/٨).

٧- المرأة الحامل تموت بسببه:

أ- عن جابر بن عتيك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والمرأة تموت بجمع شهيد». سنن أبي داود (٣١١١)

- تموت بجمع أشهر ما قيل عنها: التي تموت حاملا جامعة ولدها في بطنها. شرح النووي على مسلم(٦٣/١٣).

ب- عن عبادة بن الصامت يقول: عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه فقال: «هل تدرون من الشهداء من أمتي؟»، مرتين أو ثلاثا، فسكتوا. فقال: عبادة أخبرنا يا رسول الله. فقال: «القتيل في سبيل الله شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد، والنفساء شهيد يجرها ولدها بسرره إلى الجنة» (مسند أحمد (٢٢٧٨٤) وصحح إسناده الألباني في أحكام الجنائز ص٣٩).

- المرأة تموت من الولادة وولدها في بطنها قد تم خلقه، وقيل: إذا ماتت من النفاس فهو شهيد سواء ألقت ولدها وماتت، أو ماتت وهو في بطنها. شرح البخاري لابن بطال (٤٤/٥).

٨: موت الغريب شهادة:

أ- له شاهد من حديث ابن عمر عند الدارقطني وصححه: موت الغريب شهادة. انظر فتح الباري (٤٣/٦) ويكون بهذا الشاهد حسنا. والله أعلم.

القبس في شرح موطأ ملك بن أنس (١/ ٢١٠).

- (موت الغريب) عن وطنه (شهادة) يُعد من درجات شهداء الآخرة. التنوير في شرح الجامع الصغير (١٠/ ٤٣٧).

ب - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَاتَ بِغَيْرِ مَوْلِدِهِ قِيسَ لَهُ مِنْ مَوْلِدِهِ إِلَى مُنْقَطَعِ أَثَرِهِ فِي الْجَنَّةِ» سنن النسائي (١٨٣٢) صححه الألباني.

- هذا يكون ملكه، رجل هاجر من مصر -مثلاً- إلى آخر الدنيا، فراراً بدينه من الفتن، ومات غريباً؛ فإنه يُقاس له في الجنة من موضع مولده إلى موضع وفاته. دروس للشيخ أبو إسحاق الحويني (٣/٩٧).

١٠ - الموت بداء السل:

لقوله صلى الله عليه وسلم: «القتل في سبيل الله شهادة، والنفساء شهادة، والحرق شهادة والغرق شهادة، والسل شهادة، والبطن شهادة». حسن إسناده الألباني في أحكام الجنائز، ص٣٩.

١١ - من مات مدافعًا عن دينه أو ماله أو أهله:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ» سنن الترمذي (١٤٢١) وسنن أبي داود (٤٧٧٢) وصححه الألباني.

من فضائل الشهادة:

١- غفران الذنوب والخطايا بشرط سداد الديون.

٢- النجاة من عذاب القبر:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يَقْتُلْهُ بَطْنُهُ فَلَنْ يُعَذَّبَ فِي قَبْرِهِ».

٣- الحياة في الجنة:

قال تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (آل عمران: ١٦٩-١٧٠).

- هذه الآيات الكريمة فيها فضيلة الشهداء وكرامتهم، وما منَّ الله عليهم به من فضله وإحسانه، ولفظ: «عند ربهم» يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم، «يرزقون» من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا «فرحين بما آتاهم الله من فضله» أي: مغتبطين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمته. تفسير السعدي (١/ ١٥٦).

٤- مع أفضل خلق الله في الجنة:

- قال تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا) (النساء: ٦٩- ٧٠). أَيْ هُمْ مَعَهُمْ فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ وَنَعِيمٍ وَاحِدٍ يَسْتَمْتِعُونَ بِرُؤْيَتِهِمْ وَالْحُضُورِ مَعَهُمْ، لَا يُسَاوُونَهُمْ فِي الدَّرَجَةِ، فَإِنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ لَكِنَّهُمْ يَتَزَاوَرُونَ. وَكُلٌّ مَنْ فِيهَا قَدْ رُزِقَ الرِّضَا بِحَالِهِ. تفسير القرطبي (٥/ ٢٧٢).

الاحتساب والصبر من شروط تحصيل الأجر:

- عَنْ عَائِشَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الطَّاعُونِ، فَأَخْبَرَهَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ فِي بَلَدِهِ صَابِرًا، يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ» صحيح البخاري (٥٧٣٤).

يُستفاد من الحديث أيضًا أن من لم يتصف بالصفات المذكورة لا يكون شهيدا ولو وقع الطاعون ومات به فضلاً عن أن يموت بغيره وذلك ينشأ عن شؤم الاعتراض الذي ينشأ عنه التضجر والتسخط لقدر الله وكراهة لقاء الله وما أشبه ذلك من الأمور التي تفوت معها الخصال المشروطة، والله أعلم. فتح الباري (١٠/ ١٩٤).

والحمد لله رب العالمين.

من أخبار الفروع

رئيس فرع «هرية رزنة» بالشرقية يفوز بجائزة أفضل مُعلم للقرآن على مستوى العالم

تهنئ جمعية أنصار السنة المحمدية وأسرة تحرير مجلة التوحيد، الشيخ الدكتور عبد الله محمد الطاهر، رئيس فرع «هرية رزنة» بالزقازيق- محافظة الشرقية، وذلك بمناسبة حصوله على جائزة أفضل مُعلِّم للقرآن الكريم على مستوى العالم الإسلامي هذا العام من قِبل رابطة العالم الإسلامي بجدة.

وقد تم هذا التكريم برعاية ودعوة كريمة من خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز- حفظه الله-، وبحضور أصحاب المعالي والفضيلة والسمو الأمير مشعل بن ماجد، أمير جدة، وفضيلة الأستاذ الدكتور/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، أمين عام رابطة العالم الإسلامي، وفضيلة الدكتور عبد الله بن علي بصفر، الأمين العام للهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم، ونخبة من السادة الأساتذة والعلماء والشيوخ الأجلاء.

وجماعة أنصار السنة المحمدية بالمركز العام وأسرة تحرير مجلة التوحيد إذ تهنئ الدكتور عبد الله محمد الطاهر؛ فإنها تؤكد على استمرار التعاون المثمر- في مجال الدعوة إلى الله تعالى- بين أنصار السنة المحمدية منذ عهد- المغفور له بإذن الله تعالى- الملك عبد العزيز، مؤسس المملكة العربية السعودية، وبين العلماء والمشايخ والأمراء وجميع رجالات المملكة، سائلين الله تعالى التوفيق والسداد.

رئيس التحرير

جمال سعد حاتم


الآن
المجلد الجديد بمقر مجلة التوحيد
١٤٣٥
موسوعة علمية
لاتخلو منها مكتبة
ويحتاج اليها
كل بيت
سارع بحجز
نسختك من
المجلد الجديد
الآن أصبحت ٤٣ مجلداً من الموسوعة
الموسوعة العلمية والمكتبة الإسلامية في شتى العلوم ، أربعون عاماً من مجلة التوحيد .
أكثر من ٨٠٠٠ بحث في كل العلوم الشرعية من مجلدات مجلة التوحيد.
استلم الموسوعة ببلاش بدون مُقدَّم ؛ فقط ادفع ١٠٠ جنيهاً بعد الاستلام على ثمانية أشهر .
من يرغب في اقتنائها فعليه التقدم بطلب للحصول عليها من إدارة الدعوة بالفرع التابع له
أو من خلال قسم الاشتراكات بمجلة التوحيد بطلب مُزكّى من الفرع .
23936517